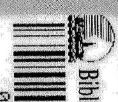
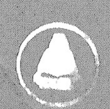
مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر

مصر النهضة

عصر حككيان

ا . د . أحمد عبد الرحيم مصطفى



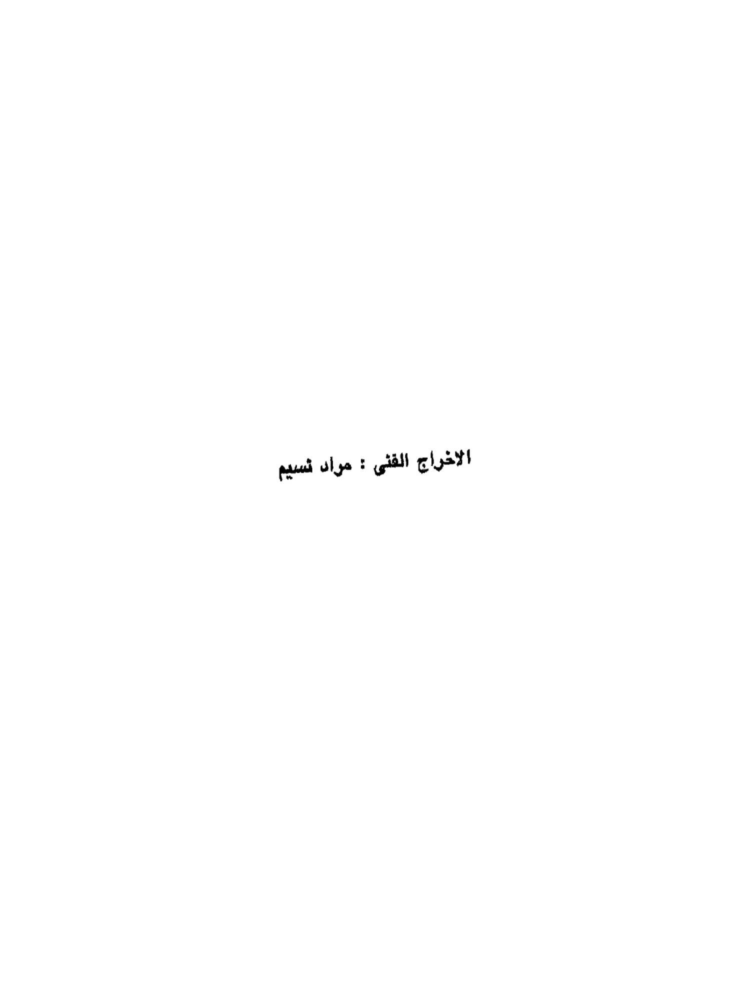




مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر

إشراف : أ. د. يونان لبيب رزق

سكرتير التحرير : خلف عبد العظيم الميري



الاخراج الفنى : مراد نسيم

عصر حككيان

ا . د . أحمد عبد الرحيم مصطفى



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٠

تقديم

هذه موضوعات أربعة كتبها الأستاذ الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى فى مناسبات مختلفة .

وما تقوم به « مصر النهضة » من جمع هذه الموضوعات ونشرها فى أحد أعدادها له أسبابه .

فالأستاذ الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى أستاذ جيل من المؤرخين وكل ما يكتبه ينبغى الحفاظ عليه وتوفيره لجموع الباحثين ، فهذا حقه كما أنه بنفس القدر حق أبناء الأجيال الجديدة من الراغبين فى متابعة ما كتبه .

ثم ان الموضوعات الأربعة التى تنشرها مصر النهضة فى هذا العدد تجمع بينها وحدة موضوعية اذ انها تعالج فى

غالبها تلك الفترة الغامضـــة من تاريخ مصر بين نهاية عصر محمد على وبدايات عصر اسماعيل ٠

أضف الى ذلك أننا كنا حريصين فى مصر النهضـــة على اقتناء ونشر عينات من تلك المجموعة الثمينة من أوراق حككيان التى تفضـــل الدكتور أحمد عبد الرحيم فمنحها لهـــذا العدد لنشرها كملحق له لتكون عونا للباحثين فى تلك الفترة ٠

ولأهمية هـــذه الأوراق من جانب ، ولأن الموضوعات التى تضمنها هـــذا العدد يجمع بينها أنها وقعت كلها فى عصر حككيان ٠ فقد رأينا أن نطلق على مجموعة هـــذه البحوث « عصر حككيان » ٠

والأمل معقود على أن تكون هذه المجموعة من الموضوعات مصدر فائدة للباحثين فى تاريخ مصر الحديث ٠

وعلى الله قصد السبيل

مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر

الموضوع الأول

جوانب من علاقات مصر الخارجية
فى عهد عبـاس الأول

بعد هزيمة القوات العثمانيــة على يد قوات محمد على فى موقعــة نزيب فى يونيــة ١٨٣٩[١] أصبحت الامبراطوريــة العثمانية فى مهب الرياح . ورغبة من ساسة الدولة فى كسب مســاندة الدول العظمى الى جانبهــا فانهم أعلنوا برنــامج الاصلاحات الذى تضمنه خط شريف جلخانة وعرف فى مجموعة باسم التنظيمات الخيرية لأنها استهدفت (تنظيم) شــئون الدولة وفق أسس جديدة فى جميع المجــالات الاداريــة والمــالية والقضائية والتعليمية . وقد أكدت التنظيمــات على نقــاط ثلاث هى :

١ ــ توفير الضمانات لأمن جميع رعايا الدولة على حياتهم وشرفهم وأملاكهم مما يستدعى علانيــة المحاكمات ومطابقتها للوائح والغاء اجراءات مصادرة الأملاك .

٢ ــ ايجاد نظام ثابت للضرائب يحل محل الالتزام .

---

(١) استقيت معظم المــادة الواردة فى هــذا البحث من وثــائق وزارة الخارجية البريطانية .

٣ ـ توفير نظام ثابت للجندية بحيث لا تظل مدى الحياة بل تحدد مدتها بفترة تتراوح بين أربع وخمس سنوات .

وبالاضافة الى ذلك فقد أكد الخط الشريف للمرة الأولى وبصفة رسمية المساواة بين جميع رعايا السلطان أمام القانون .

وبعد صدور خط شريف جلخانة وقفت بريطانيا الى جانب الدولة العثمانية رغبة منها فى تدمير الامبراطورية المصرية وما تضمنته من أخطار على المواصلات البريطانية صوب الهند . لهذا سعت الى تشكيل تألب دولى أمكنه الحاق الهزيمة بمحمد على وارغامه على الانسحاب من كل أملاكه باستثناء مصر والسودان ، ثم تحدد وضع مصر الدولى بمقتضى معاهدة لندن الموقعة فى أول يونيه ١٨٤٠ والخط الشريف الموجه الى محمد على والصادر فى ١٣ فبراير ١٨٤١ والفرمان الصادر فى أول يونيه ١٨٤١ . وقد حددت هذه الاتفاقيات والمراسيم وضع مصر القانونى الذى ظل ساريا الى أن تنازلت تركيا عن سيادتها على مصر بمقتضى معاهدة لوزان الموقعة فى عام ١٩٢٣ .

ولقد نص الفرمان الصادر فى أول يونيه ١٨٤١ على حق محمد على وأبنائه فى حكم مصر وراثيا وتمتعهم بسلطات تفوق سلطات الولاة العثمانيين الآخرين ، كما نص على كون والى مصر من رعايا السلطان وأقصاله وعلى أن جيش مصر جزء

لا يتجزأ من الجيش العثمانى وحدد عدد قواته بما لا يزيد على ١٨٫٠٠٠ مقاتل فى أوقات السلم وعلى أن يرسل الوالى سنويا ارسالية مالية الى استانبول وأن تطبق القوانين والمعاهدات العثمانية على مصر باعتبارها جزءا لا يتجزأ من الامبراطورية العثمانية وعلى أن يقلد كل والى منصبه وخلعه شخصيا فى العاصمة العثمانية وأن تسك نقود مصر وتجبى ضرائبها باسم السلطان . على أن استقلال مصر الذاتى رغم كل ذلك كان كاملا بحيث مارس الولاة سلطة تامة على المصريين فى شئون الادارة والضرائب والدفاع والتشريع . وعلى أى حال فان تسوية عام ١٨٤٠ ـ ١٨٤١ التى حددت وضع مصر الدولى بهذا الشكل قد توصلت الى حل وسط أرضى رغبات جميع الأطراف. فالباب العالى لم يعترض على حق الوراثة طالما بقيت مصر فى نطاق الامبراطورية العثمانية وفرضت حدود على سلطة والبها ، أما الدول العظمى التى ضمنت سريان التسوية فانها حافظت على تمامية أملاك السلطان دون أن توصد الباب أمام التغلغل الاقتصادى الأوروبى ، كما أصبحت بمثابة حكم بين مصر والدولة العثمانية وبالتالى اكتسبت حق التدخل فى شئون كلا الطرفين ولو أنها لم تحل دون تطلع كل الأطراف الى اكتساب مزيد من المزايا : فحق الحكم الوراثى كان يشجع ولاة مصر على التطلع الى الاستقلال التام فى الوقت الذى سعى فيه الباب

العالى الى تقليص الامتيازات التى حصلت عليها مصر متى ما سنحت الفرصة .

وبعد هزيمة مصر فى أوائل الأربعينات انتقلت بالتدريج من حيز القوة الى حيز الضعف ومن الاستقلال الواقعى الى الخضوع لاستانبول .

وقد أحس محمد على بهذا التغيير فاهتم بمقاومة اتجاه كل من بريطانيا وفرنسا للتدخل فى شئون البلاد — ولما كان يخشى الاحتلال البريطانى باستمرار فقد تعاون مع الحكومة الفرنسية فى تحصين سواحل مصر الواقعة على البحر المتوسط ، كما زاد أعداد جيشه فوق الحد الذى سمحت به التسوية وذلك حتى لا تحاول الدولة العثمانية الغاء الامتيازات التى حصلت عليها مصر . ولكى يؤكد استقلاله الذاتى فانه استولى على المواصلات البرية والنيلية التابعة للبريطانيين ووضعها تحت الادارة المصرية . وحين عرض عليه مشروع قناة السويس تردد فى تنفيذه خوفا من اغضاب بريطانيا وأصر على أن يكون المشروع مصريا بحيث يكون رأس المال محليا ويكون الفنيون فى خدمة الحكومة المصرية ، كما تحدث عن حياد مصر باعتباره شرطا أساسيا لتنفيذ المشروع الذى أشار الى كونه ذا أهمية بالنسبة الى أوروبا بوجه عام . وقد علمته تجاربه الطويلة أن لا جدوى من الاعتماد على فرنسا أو على أى دولة أوروبية عظمى أخرى

وأن مقاومة النفوذ العثمـــانى أسهل كثيرا من مقاومة نفوذ انجلترا وفرنسا وبالتالى فقد عدل موقفه من استانبول وحسن علاقاته بالسلطات العثمانيـــة باعتبار ذلك وسيلة لمقاومة الضغط الغربى •

وبعد ان اختلط عقل محمد على تولى ابنه ابراهيم الحكم ، وحين توفى تولى عباس الأول حفيد محمد على الذى اتصف بالقسوة والتعصب ، خاصة وأنه كان الوحيد من آبناء محمد على وأحفاده الذى لم يتلق تعليما عصريا ولم يدرس أى لغة أوروبية أو يقوم بزيارة أوروبا ، وبالتـــالى فانه لم يتذوق الحضـــارة الغربية ولم يبد أى احترام لأساليب حياة الأوروبيين ، واتجــه الى القضاء على كل مظاهر النفوذ الاوروبى وتوثيق علاقات مصر بالبـــاب العـــالى خاصـــة وانه كان يسفت تســـامح جـــده مع الأوروبيين • ونتيجة لكل ذلك فقد عادت العلاقات بين مصر والدولة العثمانيـــة الى ما كانت عليـــه قبـــل موقعـــة نافارينو (١٨٢٧) ، خاصـــة وأن عباس كان يرى أن مصر ليست سوى ولاية صغيرة تابعة للدولة العثمانية وليست امبراطورية كما كان الحال فى عهد جده وبالتالى فانه آمن بضرورة تمشى مؤسساتها ونظمها مع مساحتها ودخلها (٢) مما يفسر كثيرا من الاجراءات

---

(٢) وثائق وزارة الخارجية البريطانية ــ الملف ٨٤٢/٧٨ نسخة من رسالة دكتور بروير طبيب عباس الى مستر أبرثون بتاريخ ٩ يناير ١٨٥١ •

التى اتخـذها مثل بيع الأسـطول وتسريح الجيش واغـلاق المصانع وتقليص التعليم ـ الى غير ذلك .

وفى ديسمبر ١٨٤٨ بارح عباس مصر الى استانبول لكى يتسلم فرمان توليته ويحضر فى الباب العالى الاحتفال الخاص بتنصيبه واليا . ورغم أن السـلطان عبد المجيد استقبله استقبالا حسنا وأغدق عليه امارات التشريف فقد كان الباب العـالى أميل الى تقليص صلاحيات الاستقلال التى تمتع بها محمد على وأبدى استعداده للاشراف المبـاشر على شـئون مصر (٣) . وبعد عودة عباس الى مصر طلب منه أن يرسل ٢٠٠٠ رجل لكى يعملوا فى الأسطول العثمـانى مما أدى الى توقف العمل فى القناطر الخيرية والشك فى استكمال المشروع (٤) .

وقد شجع الموقف الداخلى فى مصر الباب العـالى على التدخل فى شئونها . فرغم أن عباس لم يرتكب فى أوائل حكمه ظلما أو يصطنع القسوة فقد أثار كراهيـة الأوروبيين والعرب والأتراك خاصة وأن معظم الموظفين لم يكونوا يقبضون مرتباتهم

---

(٣) وثائق وزارة الخارجية البريطانية ـ الملف ٨٠٤/٧٨ ـ رقم ١٩ من مرى الى بالمرستون بتاريخ ١٩ فبراير ١٨٤٩ .

(٤) نفس الملف ، رقما ٢١ و ٢٤ من مرى الى بالمرستون بتاريخ ١٦ و ١٩ ابريل ١٨٤٩ . فى يونية ١٨٥٠ زار عباس السـلطان فى جزيرة رودس وحين عـاد الى مصر كان شـديد السرور لأن عبد المجيد استقبله اسـتقبالا حسـنا (الملف ٨٤٠/٧٨ رقم ١٨) من جلبرت الى بالمرستون بتاريخ ١٨٥٠/٦/١٧ .

لأن الخزانة كانت خاوية ـ وقيل ان عباس استولى على الجزء الأكبر من ثروة محمد على الخاصة وعلى مجوهرات بناته مما دفع أعضاء الأسرة الحاكمة فى مصر الى الشكوى الى استانبول • وكان أنصار فرع ابراهيم يأملون فى استبدال الحاكم لصالحهم وتعلقت آمالهم بالأمير أحمد أكبر أبناء هذا الفرع الذى كثر الحديث عن مطالبته السابقة بالحكم وعن الأموال الضخمة التى كان بامكانه الاتفاق منها للحصول على رضى الدول العظمى • وبالاضافة الى مصاعب عباس هذه فان فرنسا كانت تكن له العداء بعد أن ألغى كثيرا من المؤسسات التى كان يشرف عليها فرنسيون ـ وكانت فرنسا تأمل أن يؤدى تغيير الحاكم الى خدمة المصالح الفرنسية خاصة وأن الأمير سعيد ابن محمد على والأمير أحمد بن ابراهيم اللذين كان مقيضا لهما أن يخلفا عباس طبقا لنظام وراثة العرش وفقا لقاعدة الأكبر فالأكبر الذى وقعت عليه التسوية قد تلقيا تعليمهما فى فرنسا وكان من المتوقع أن ينحازا الى جانبها (٥) •

وقد انعكست الصعوبات التى واجهها عباس فى النزاع الذى ثار بينه وبين الباب العالى (١٨٥٠ ـ ١٨٥٢) حول تطبيق التنظيمات فى مصر ، خاصة وأن هذا النزاع والاتهامات

---

(٥) الملف ٨٠٤/٧٨ ـ المكاتبة رقم ٢٨ من مرى الى بالمرستون بتاريخ ٧ مايو ١٨٤٩ •

التى وجهها الباب العالى الى الوالى قــد تسببت فى اضطراب البلاد . ونتيجة لخوف الوالى من نتائج ذلك فانه اتجه الى بريطانيا لكى تحميه خاصـــة وأنه كان قد أثار سخط فرنسا بعد أن طرد الفرنسيين من الادارة المصريـــة وأنه كان شـــديد الخشـــية لبريطانيا التى تسببت فى هزيمة جده وكان لها أسطول قوى فى البحر المتوسط . وقد راقب قنصل بريطانيا العام فى مصر ــ مرى — Murray — الموقف العام فى البـــلاد حتى قبل أن يبـــدأ النزاع بين الوالى والباب العـــالى وحاول بالتدريج أن يوازن النفوذ الفرنسى الذى كان قويا جدا فى عهد محمد على ، وسعى الى انتهاز فرصـــة مبكرة لكى يبين له ــ بناء على اقتراح من لورد بالمرستون وزير الخارجية البريطانية ــ المزايا التى تعود على مصر من بناء سكة حديدية بين القاهرة والسويس (٦) . وقد أبدى مرى انزعاجه بوجه خاص من الجولات التى كان يقوم سليمان باشا الفرنساوى فى الدلتا حيث كان يتفقد التحصينات ويعززها وينظم ويدرب القوات التى جرى تجنيدها مؤخرا . وكان مرى يشك فى أن فرنسا لازالت تراودها أطمـــاع خاصة بالاستيلاء على مصر خاصـــة وأن هذه التحصينات كانت قد

(٦) نفس الملف رقم ٣ من مرى الى بالمرســتون بتاريخ ١٦ يناير ١٨٤٩ . راجع أيضــا :

Helen Rivlin, The Railway Question in the Ottoman —Egyptian Crisis of 1850 — 52 (Middle East Jornal, Autumn, 1961).

يدأ تنفيذها فى عهدى محمد على وابراهيم وأن الخطط الخاصة بها قد وضعت فى باريس . وكان مرى يعتقد أن الهدف من اقامة هـذه التحصينات هو تمكين الوالى اما من مقاومة السـلطان أو من قطع المواصلات بين بريطانيا والهند (٧) . وقد أدى جزع مرى الى قطعه الاجازة التى كان يقضيها فى انجلترا وعودته الى مصر لكى يساند عباس فى نزاعه مع الباب العالى خاصة وأنه كان يتمتع لديه بنفوذ أقوى مما كان يتمتع به ممثل أى دولة أوروبية أخرى أو مما يمكنه الحصول عليه لدى أى وال قد يخلفه (٨) . يضـاف الى هـذا أن عباس بادر بعد نشوب النزاع بينه وبين الباب العالى الى ابداء حسن نيته ازاء انجلترا والى استنجاده بها ، ولهذا ذكر لوالن القائم بأعمـال القنصلية العامة أنه حين تولى الحكم وجد كل ادارات البلاد فى أيدى الفرنسيين وأنه بعد أن قلص نفوذهم عاداه قناصل فرنسـا العموميون وغيرهم من الفرنسيين مما استتبع التشنيع عليه والشكوى منه الى استانبول والتحريض على خلعه لكى يحل محله أحد أفراد الأسرة من الموالين لفرنسا . وأبدى عباس اعتماده على مرى لكى يحث الحكومة البريطانية على الدفـاع عنه واصـدار أوامرها الى سفيرها فى استانبول ـ سير ستراتفورد كاننج ، سير ستراتفورد

---

(٧) ٨٠٤/٧٨ ـ رسالة من مرى الى بالمرستون مؤرخـة ١٨٤٩/١٢/١٦ .

(٨) ٨٤١/٧٨ من مرى الى بالمرستون بتاريخ ١٨٥٠/١٠/٩ .

دى ردكليف فيما بعد ــ لكى يسانده فى دوائر القصر السلطانى والباب العالى ، مشيرا الى اهتمامه بالمواصلات البريطانية صوب الهند وملمحا الى أنه بذل كل ما فى وسعة لتحسين ادارة الترانزيت ، واعتذر بالمصاعب المالية عن عدم مبادرته الى تنفيذ مشروع السكة الحديد بين الاسكندرية والسويس ووعد بتنفيذه متى ما ساعدته الظروف (٩) .

ورغم مساندة مرى لعباس فلم يكن بالمرستون ــ وزير خارجية بريطانيا ــ يعتقد أن التنظيمات ستضعف سلطة الوالى فى مصر (١٠) . ولكن مرى أبدى قلقه حين قرر الباب العالى أن يحرم عباس من حق اعدام المجرمين ، وذلك لاعتقاده بأن حق الاعدام سيساعد على استقرار الهدوء فى مصر وتأمين البريد والبضائع والركاب المتوجهين الى الهند عبر الصحراء خاصة وأن مصر لم تكن مجاورة لعاصمة الدولة بحيث يتسنى نقل المجرمين والمتظلمين اليها وارسال قوات السلطان بالسرعة اللازمة لمساعدة السلطات المدنية اذا ما دعت الضرورة ، وأن مثل ما طالب به عباس لم يطبق فى البوسنة وكردستان وأن محاولة

---

(٩) نفس الملف من والنى الى مرى بتاريخ ١٨٥٠/٩/٢٠ .

(١٠) ٨٤٢/٧٨ ــ ملحوظة من بالمرستون بتاريخ ١٨٥١/١/٢ على رسالتى والنى المؤرختين ١٩ ديسمبر ١٨٥٩ .

تطبيقه فى حلب ودمشق أدت الى سفك العسكريين لقدر من الدماء يفوق ما كان يمكن أن يسفكه الحاكم المحلى فى عدة سنوات • أما عباس فقد طالب بحق الاعدام لا باعتباره من حقوق السيادة ولكن باعتباره سلطة تفويض كان يمارسها محمد على وابراهيم ويمارسه عباس ذاته حتى ذلك الوقت طبقا لفرمان الوراثة ، وذهب الى أن هذا الحق الذى لم يسىء هو استخدامه كفيل بالمحافظة على أمن مصر ورخائها ، وأن محاولة حرمانه منه كان من نتيجة نفوذ أعدائه فى استانبول الذين كان يهمهم أن تختل اوضاع مصر بالصورة التى تؤدى الى خلعه ، خاصة وأن حق القصاص لم يحرم منه حتى ذلك الوقت حاكم الحجاز الذى لم يكن باشا وراثيا ولايمكن مقارنة حكومته بمصر لا من حيث الحيز أو السكان أو الأهمية (١١) •

وفى ١٨ يناير ١٨٥٢ استدعى عباس القناصل العموميين الذين كانوا يمثلون الدول الخمس الموقعة على تسوية ١٨٤٠ — ١٨٤١ وشكا لهم من نوايا الباب العالى واستطرد قائلا ان جيوش الدول الأوروبية لا جيوش تركيا هى التى فرضت على محمد على الوضع القائم وأنها لذلك ملزمة أدبيا بأن تعمل على تطبيق التسوية •ولم يبد ممثلو فرنسا والنمسا وروسيا بروسيا تعاطفهم مع عباس الذى اعتبروه منحازا الى مصالح

(١١) ٩١٦/٧٨ (رقم ١) من مرى الى جرانفل بتاريخ ١٨٥٢/١/١٦ •

بريطانيا التجارية خاصة وقد بدأ فى تنفيذ مشروع السكة الحديدية دون أن يستشيرهم • وصرح له قنصل فرنسا العام بأنه لو استدعى السلك القنصلى قبل بضعة شهور وأبدى ثقته به وطلب النصح والمساعدة من جانب القناصل لربما أدت مساعيهم لدى حكوماتهم الى التأثير فى قرارات الباب العالى والى الحيلولة دون صدور القرار الأخير • وكان قد سبق لمرى أن وجه نظر عباس مرارا الى ضرورة تقوية صلاته بالقناصل الآخرين وطلب نصحهم فيما يتعلق بعلاقاته بالباب العالى ولكن الوالى رفض ذلك بحجة أن قنصلا أو قنصلين كانا على علاقة أوثق بأفراد أسرته الآخرين من علاقتهما به وبأن القناصل حين كانوا يزورونه كانوا يستثيرون غضبه بتناول موضوع واحد دون لباقة أو شفقة وهو عدم ميله الى مجتمعاتهم واتجاهه العام صوب بريطانيا ([١٣]) •

ومهما كان الأمر فقد أحيطت الدول الخمس الموقعة على تسوية ١٨٤٠ ـ ١٨٤١ بموضوع التنظيمات فى نفس الوقت الذى لقى فيه عباس مساندة عناصر معينة فى مصر ـ فقد أرسلت الى مرى عريضة وقعها بعض تجار الاسكندرية والقاهرة وبعض المواطنين المهمين الآخرين وتضمنت احتجاجهم على قرارات الباب العالى ورغبتهم فى المحافظة على حقوق الوالى وعلى أمن

(١٢) نفس الملف ـ رقم ٢ من مرى الى جرانفل بتاريخ ١٨٥٢/١/١٦ •

البلاد (١٣) • ولكي يعزز معهم عباس مركزه فانه أطلع مرى على رسالة أرسلها اليه لويس نابليون - رئيس الجمهورية الفرنسية - وأبدى فيها استعداده لمساندة الوالي في استانبول فيما لو أعاد وضع فرنسا الى ما كان عليه قبل تولي عباس الحكم حين كانت كل المناصب الهامة في أيدي فرنسيين وحين كانت شئون مصر تدار من باريس (١٤) •وكتب مرى الى كاننج مدافعا عن عباس وذاهبا الى أن المشكلة كلها لا تعدو كونها سوء تفاهم تسبب فيه أعداء عباس في استانبول وأن مصالح بريطانيا تكمن في مساندته (١٥) •

وفي استانبول انضم سفيرا روسيا والنمسا الى كاننج وقام الجميع بمساندة عباس ولو أن السفير الفرنسي كان على عكس ذلك (١٦) فحاول أن يظهر الوالي بمظهر المتمرد على سيده مستهدفا بذلك خلعه خاصة وأن فرنسا كانت تستند في مصر الى « الحزب الفرنسي » أي الى أمراء الأسرة الحاكمة المعروفين باسم « أبناء فرنسا » ومن التفوا حولهم • وكان كل أولئك يشدون أزر الأتراك الساخطين الذين سبق أن فصلوا من خدمة

---

(١٣) نفس الملف - نسخة رقم ٤ بتاريخ ١٨٥٢/١/٢٢ •

(١٤) نفس الملف - رقم ٥ من مرى الى جرانفل بتاريخ ١٨٥٢/١١/٢٥ •

(١٥) نفس الملف - نسخة رقم ٥ من مرى الى كاننج بتاريخ ١٨٥٢/٣/٦ •

(١٦) نفسه - رقم ٨ من مرى الى جرانفل بتاريخ ١٨٥٢/٣/٤ •

الحكومة [17] . وقد أكد عباس لمرى أن سعيد باشا ابن محمد على وولى العهد قد وقع خطابا التزم فيه ، فى حالة توليه العرش ، بقبول التنظيمات فى مجموعها وبالتنازل عن حق القصاص وبطاعة الباب العالى فى كل الأمور . ورغم أن مرى كان يشك فى صحة هذا الخطاب الا أنه كان يرى أن نجاح المؤامرة الهادفة الى تولية سعيد سيؤدى الى انهيار مصر نتيجة لمطالب الباب العالى واسراف سعيد أو سيستتبع وقوعها تحت الحماية الفرنسية المباشرة مما يلحق بالمصالح البريطانية أفدح الأضرار [18] . وحين طلب عباس زيارة سفينتين بريطانيتين الى الاسكندرية نصح مرى وزارة الخارجية البريطانية بتلبية طلبه حتى لا تتعرض البلاد لانقلاب سياسى خاصة وأن نوبار — سكرتير الوالى وترجمانه — بعث برسالة الى مرى ذهب فيها الى أن رشيد باشا (الصدر الأعظم) قد وعد سفير فرنسا فى استانبول بخلع عباس فى حالة مساندة الحكومة الفرنسية له [19] (أى الصدر الأعظم) [20] .

---

(١٧) ٩١٦/٧/٨ — رقم ٢٥ من ى الى مالمسبورى بتاريخ ١٨٥٢/٦/٢ .

(١٨) نفس الملف — مسودة نسخة رقم ٦ من مرى الى كاننج بتاريخ ١٨٥٢/٣/٢٧ .

(١٩) نفس الوثيقة السابقة .

(٢٠) نفس الملف — نسخة (بالفرنسية) من رسالة من نوبار الى مرى بتاريخ ١٨٥٢/٣/٢٦ .

وعلى أى حال فقد ساندت بريطانيا عباس فى العواصم الأوروبية الكبرى فى الوقت الذى أرسل فيه الباب العالى فؤاد أفندى الى مصر . وكان الهدف السرى من بعثة فؤاد هو اكتشاف القوة النسبية للأحزاب فى مصر واذا ما وجد حجة لخلع عباس عليه أن يستوثق مما اذا كان من العملى فرض الطاعة لفرمان يتضمن تولية سعيد رئيس الحزب الفرنسى أو حزب الأسرة الحاكمة ، على أن يقوم فى حالة ادراكه أن نجاح مثل هذه المحاولة أمر غير محتمل بالعودة الى استانبول بعد أن يؤكد لعباس دلائل الصداقة والتقدير (٢١) .

ووصل فؤاد الى مصر فى أوائل ابريل ١٨٥٢ ، وحين أبدى المبعوث التركى قدرا من التعقل هدأت كل مخاوف عباس الذى أبدى أنه لن يعترض على حقوق سيده وأنه لا يفكر فى الاستقلال أو فى تحدى الباب العالى ــ ومما يدل على ذلك أنه قدم للخزانة التركية مبلغ ثلاثة مليون جنيه تركى لم يخصمها من الخراج (الويركو) المستحق على مصر بل انه دفع قيمة خراج عام ١٨٥٢ الى بنك سينا فى فينا باعتبارها ضمانا للقرض الذى تعاقد عليه مع بنك الحكومة فى استانبول ، وكل ذلك مما ينفى رغبة الوالى فى اعلان استقلاله (٢٢) . وازاء كل ذلك وافق

---

(٢١) نفس الملف ــ رقم ١٠ من مرى الى مالمسبورى بتاريخ ٣٠ مارس ١٨٥٢ .

(٢٢) نفس الملف ــ رسالة من هوورد الى مالمسبورى بتاريخ ١٤/٤/١٨٥٢

فؤاد على أن يمنح عباس حق الحياة والموت لمدة ست سنوات فيما اذا كان القتيل لم يترك وريثا • وقد طالب عباس بثمانى سنوات بدلا من ست ، وأمكن فى النهاية التوصل الى حل وسط فسمح لعباس بسبع سنوات بعد أن وعد بأن يرسل لاستانبول كل حيثيات القصاص (٢٣) • وبعد التوصل الى حل لمشكلة القصاص انتقل فؤاد ــ الذى كلف بالتوسط بين أفراد الأسرة الحاكمة وبين عباس (٢٤) ــ الى مسألة ميراث محمد على • وكانت هذه المسألة حساسة وغامضة بحكم أن الأسرة كانت تطالب بكل مصر التى لم يبق أمامها سوى الافلاس (٢٥) •

على أن هذه المسألة الأخيرة كانت ثانوية اذا ما قورنت بمسألة التنظيمات التى اتفق حولها الرأى برغم ما اتضح من فحوى المراسلات من أن بعض الوزراء لم يتوخوا العناية فى دراسة مسألتى التنظيمات والقصاص من حيث تطبيقهما فى مصر بوجه خاص وفى البلدان الشرقية بوجه عام ــ اذ ان سيف العدالة فى هذه البلدان هو رمز السلطة وسرعة عقاب المجرمين هى الأسلوب العملى الوحيد لقمع الاضطرابات والقلاقل التى يثيرها البدو

---

(٢٣) نفس الملف ــ رقما ١٦ و ١٨ من مرى الى مالمسبورى بتاريخ ٤/١٧ و ١٨٥٢/٥/٣ •

(٢٤) نفس الملف ــ رقم ١٤ من مرى الى مالمسبورى بتاريخ ١٨٥٢/٤/١٦ •

(٢٥) نفس الملف ــ رقم ١٩ من مرى بتاريخ ١٨٥٢/٥/١٨ •

القاطنون فى الصحارى المجاورة لوادى النيل • الا أن فؤاد تناول المسألة بمهارة حققت كل أهداف الباب العالى اذ ان منح عباس حق القصاص لمدة سبع سنوات كان اجراء نظريا — فاذا ما نقلت كل حيثيات الحكم الى استانبول كان يسهل جدا أثناء مراجعتها أن توجد ثغرات من شأنها أن تثير نزاعات خطيرة ، وكان خطأ عباس أنه خلال مفاوضاته مع فؤاد لم يقم باستشارة مرى أو أى قنصل عام آخر (٢٦) •

ومهما كان الأمر فقد عادت العلاقات بين عباس والباب العالى الى ما كانت عليه قبل احتدام النزاع • وحين نشبت حرب القرم أبدى عباس استعداده لاظهار ولائه للسلطان بوضع قوة برية وبحرية تحت تصرفه (٢٧) وجرت استعدادات فى الاسكندرية لتجهيز السفن والرجال وذلك رغم أن اهمال الأسطول منذ توليه الحكم قد جعل السفن غير صالحة للنزول الى البحر أو القتال • أما البحارة فقد أخذ عدد كبير منهم من المصانع والسكة الحديدية التى كان يجرى العمل فيها وأرسلوا الى الترسانة أو الى السفن • وجرى تشجيع الجنود على التطوع بنفس الأسلوب (٢٨) •

---

(٢٦) نفس الملف — رقم ٢٢ من مرى الى مالمسبورى بتاريخ ١٨٥٢/٥/٢٠ •

(٢٧) نفسه — وزارة الخارجية الى جون جرين بتاريخ ١٨٥٣/٧/٥ •

(٢٨) ٩١٩/٧٨ — رقم ٢ من جون جرين الى سترالفورد دى ردكليف بتاريخ ١٨٥٣/٦/٢٣ •

وفى ٢٠ يوليه ١٨٥٣ بدأ تحرك السفن والقوات • وأبدى المصريون المسلمون الذين أثارتهم الاستعدادات الحربية والأخبار التى أيقظت مشاعرهم الدينية بعض التعصب الذى كانت له آثار سيئة ، رغم أنهم لم يقوموا بما يتعدى الكلام ، ولو أن احتدام المشاعر هذا أدى الى مقتل أو جرح بعض الرعايا البريطانيين برغم الاجراءات المتشددة التى اتخذتها الحكومة المصرية لقمع النزعات التعصبية لدى السكان ولو أن هذا لم يهدىء روع المسيحيين المشارقة فى حين أن احتدام مشاعر السكان الأوروبيين أدى الى توقع أعمال العدوان منهم لا من المسلمين (٢٩) • وبالاضافة الى ذلك فقد جرى سحب الأقباط المجندين فى الجيش النظامى من الخدمة العسكرية ووضعهم فى أعمال السكة الحديدية (٣٠) •

ورغم ذلك فان الأحوال الداخلية للبلاد ككل كانت هادئة لصرامة الحكومة (٣١) خاصة وأن المنافسة بين انجلترا وفرنسا قد غطى عليها انضمام الدولتين الغربيتين الى الدولة العثمانية ضد روسيا • وبالاضافة الى ذلك فقد جرى نقل مرى الذى أدت علاقته الشخصية بعباس الى غضة الطرف عن مساوىء سياسته

---

(٢٩) نفس الملف — رقم ٥ من جرين الى كلارندون بتاريخ ١٣ اغسطس ١٨٥٣ •

(٣٠) نفس الملف — من جرين الى أدنجتون بتاريخ ٨ اغسطس ١٨٥٣ •

(٣١) نفس الملف — رقم ١٤ من جرين الى كلارندون بتاريخ ١٨٥٣/٩/١٩ •

الداخلية . وأرسلت تعليمات الى القنصل البريطانى العام الجديد ـ بروس ـ لكى يقيم علاقات طيبة مع زميله الفرنسى ـ ساباتييه ـ مع لفت نظره الى أن محاولات الايقاع بينهما يمكن تلافيها بالاتصال المباشر والعمل المشترك . وجرى توجيه نظر بروس الى ضرورة لفت نظر الباشا الى أن الحكومة البريطانية لا ترغب فى الحصول على نفوذ سياسي أو فى الانفراد بالنفوذ فى مصر أو تعكير العلاقات القائمة بين السلطان والوالى ولو أنه يحق لها أن تتوقع نطبيق المعاهدات وتمتع رعاياها بالعدالة المطلقة . كما وجه نظره الى ضرورة انتهاز كل الفرص ليؤكد للباشا أن انجلترا لا ترغب الا فى أن تتمتع مصر بالرخاء والتقدم وأن تظل بمثابة الطريق الى الهند وأنه طالما يحافظ على سلامة هذا الطريق يكون جديرا بصداقة الحكومة البريطانية ومساعدتها (٣٢) .

ويبدو أن الحكومة البريطانية أدركت نتيجة للعمل المشترك مع فرنسا ضد روسيا مدى ضرور المنافسة القديمة بين الدولتين وهى المنافسة التى أدت الى خلق حزبين فى مصر يعتمد أحدهما على الموظفين الفرنسيين فى الحكومة المصرية الذين كانوا يسعون الى اقناع الوالى بأن كل اصلاح تتبناه انجلترا لا يهدف الا الى

---

(٣٢) ١٠٣٤/٧٨ ـ رقم ١٦ ـ وزارة الخارجية الى بروس بتاريخ ١٨٥٤/٣/٣١ .

التمهيد للاحتلال البريطانى • أما الحزب الآخر الذى كان يقوم على المؤيدين النفوذ البريطـانى فلم يدخر أنصاره وسعا فى تشويه أى خطوة يخطوها ممثل فرنسا للدفاع عن حقوق ومصالح الرعايا الفرنسيين • ونتيجة لهذا الوضـع كان الوالى يشك فى كل ما يقترح عليه بصدد ادخال الاصلاحات على ادارته الداخلية ويبالغ فى الأهمية المضفاة على ابداء الصداقة وحسن النية له مستغلا ذلك فى الاساءة الى الأشخاص والسعى الى احياء نظام الاحتـكار •

لكل ذلك اعتقـد بروس أن حسـن التفـاهم والصراحة مع قنصل فرنسا العام من شأنهما أن يؤديا الى وضع حد للمؤامرات التى ألحقت الضرر بالاصلاحات • ولهذا لفت نظر ساباتيبه الى ضرورة اتحاد انجلترا وفرنسا فى اقناع عباس بالقضـاء على كل أسباب الشكوى المترتبة على سـوء ادارته واهماله والتخلى عن نظام الاحتكار الذى كان يعود اليه بالتدريج • وكان رد ساباتيبه أنه يقر خطـأ سابقيه الذين كانوا يسعون الى اكتساب النفوذ مما أدى الى أسوأ النتائج وأنه يحبذ مشروع السـكة الحديدية الذى زكاه لدى الوالى • ولكنه أشار الى الميزات الممنوحة لشركة بننسولار وأورينتال دون غيرها مما كان يشكل خرقا للمعاهدة المعقودة بين الباب العالى وفرنسـا التى منحت بمقتضى هـذه المعاهدة على وضع الدولة الأولى بالرعاية • وأقر

ساباتييه أن مصالح انجلترا تفوق مصالح فرنسا وأبدى استعداده للقيام بعمل مشترك لحفز الاصلاح • ثم أكد بروس لساباتييه أن الحكومة البريطانية لا تسعى الى احتكار النفوذ فى مصر بل كل ما يهمها هو تحسين المواصلات الى الهند عبر مصر واصلاح ادارة البلاد وأن من واجب فرنسا أن لا تغار أو تشك فى ذلك وكان يحبذ تضامن الدولتين الغربيتين الذى من شأنه أن يرغم الوالى على التخلى عن مشروعاته الاحتكارية وعلى اصلاح ادارة البلاد (٣٣) • وحين لمس عباس هذا التضامن عاد الى توثيق علاقاته بالباب العالى مما أضعف نفوذ ممثلى الدول الأوروبية الذى نتج عن سوء علاقاته بالباب العالى مما جعل بروس يؤجل اثارة الشكاوى الى ما بعد انتهاء الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا (٣٤) •

وأرسل عباس ٩٠٠٠ جندى الى تركيا وخطب ابنة السلطان عبد المجيد الى ابنه الهامى وطلب من الباب العالى أن ينعم عليه بلقب « العزيز » وراوده أمل فى تعديل نظام وراثة العرش لصالح ابنه الهامى (٣٥) • على أن كل ذلك لم يتمخض عن شىء نتيجة لوفاة عباس المفاجئة فى ١٣ يولية ١٨٥٤

---

(٣٣) ١٠٣٥/٧٨ ــ بروس الى كلارندون بتاريخ ١٨٥٤/٣/١٦ •

(٣٤) نفسه ــ نسخة رقم ١ من بروس الى ردكليف فى ١٨٥٤/٣/١٥ •

(٣٥) نفسه ــ رقم ٣٩ من بروس الى كلارندون بتاريخ ١٣ اغسطس •

وهى الوفاة التى يرجح أنها كانت نتيجة أزمة عصبية (٣٦) مرتبطة بقلقه بصدد تعديل نظام وراثة العرش واحتمال انهيار الامبراطورية العثمانية وطمعه فى اتخاذ لقب الخلافة •

وقد سعى أنصار عباس الى تأخير تولى سعيد الحكم الى أن يمكنهم التآمر فى عاصمة الدولة لضمان الحكم لالهامى • الا أن قنصلى بريطانيا وفرنسا تدخلا تنفيذا لشروط تسوية ١٨٤٠ — ١٨٤١ بالصورة التى ضمنت العرش لسعيد •

وكان سعيد حين تولى الحكم فى الثامنة والثلاثين من عمره وكان يتقن اللغتين الانجليزية والفرنسية كما كان معروفا بميله الى فرنسا • وقد رحب كل سكان مصر بتوليه الحكم بسبب سخطهم على عباس الذى أرغم الكثيرين على العمل فى بناء قصوره وتنفيذ مشروعاته الأخرى واصطنع القسوة فى تشغيلهم ، هذا الى بخله • واستهل سعيد حكمه بالصفح عن الاساءات التى تعرض لها هو وأبناء ابراهيم وبارسال رسالة ودية الى الهامى وتصريحه بأنه لن يميل الى فرنسا أو لانجلترا بل سيكرس جهوده لتحقيق رخاء مصر •

ومهما كان الأمر فقد آذن عهد سعيد بفترة كان مقيضا لها أن تلحق أبلغ الضرر بمصر وسكانها •

---

(٣٦) نفسه — رقم ٣٥ بتاريخ ١٨٥٤/٧/١٧ ورقم ٣٩ اصلاه — وكلاهما من بروس الى كلارندون •

الموضـــوع الثـــانى

انهيار نظام الاحتكار فى مصر
بعد عـــام ١٨٤١

يسجل عهد محمد على نهاية العزلة التى خيمت على مصر فى أعقاب الكشوف الجغرافيـــة والفتح العثمـــانى كما يسجل انخراطها فى الاقتصاد العالمى • فلقد شـــهد حكم محمد على بداية انتقال مصر من الاقتصاد المغلق الى الاقتصاد المفتوح وتميز بسيطرة الدولة على القسط الأكبر من النشاطات الاقتصادية(١) • فما أن تخلص من أخطر خصومه السياسيين ــ أى المماليك ــ فى عام ١٨١١ حتى بدأ يطبق نظـــام الاحتكار الذى ما لبث أن شمل كل نشاطات مصر الاقتصادية : فقد وضع يده على معظم أراضى البلاد وسيطر على اقتصادها (٢) وصناعاتها ، وذلك بعد مصادرته للأراضى التى منح مساحات كبيرة منها لأبنائه وأقاربه وضباطه •

---

(١) حسين خلاف : التجديد فى الاقتصـــاد المصرى الحديث (القاهرة ١٩٦٢) ص ٤ ــ ٥ •

(٢) أشار كلوت بك (Aperçu général sur l'Egypte, II, P. 198). الى أن نظام الاحتكار لم يكن يطبق على كل منتجات مصر ، فقد كانت توجد كثير من السلع ــ ومنها معظم الحبوب ــ التى كان الفلاحون يتمتعون بحرية التصرف فيهـا •

ولم يخضع توزيع الأراضي هذا لأى قانون بل كان وليد مزاج الباشا ولم يصحبه أى تحر عمن كان يمتلك هذه الأراضي فى عهد البكوات المماليك الذين قضى عليهم أو اضطرهم الى الهجرة ، ويبدو محمد على افترض أن كل الأراضي التى لا يوجد لها مالك فعلى أصبحت تابعة للحكومة ، وبالتالى فانه فرض عليها نظام الالتزام أو قام بتوزيعها أو بزراعتها لحسابه الخاص بالشكل الذى يعود عليه بأقصى ربح ممكن [3] .
ولقد عانى الفلاحون العاملون فى هذه الأراضي من مختلف الصعوبات وهبط مستواهم حتى أصبحوا فى وضع شبيه بأقنان الدولة بحيث هاجر عدد كبير منهم من قراهم أو من مصر . كما ضيق نظام الالتزام على الصناعات وبخاصة اليدوية منها وقضى على ما تبقى لها من روح المبادرة الحر [4] .

أما التجارة فكانت تتم اما عن طريق الالتزام أو احتكار الحكومة ، وكانت تجرى ادارتها بالصورة التى تعود على الوالى بأقصى ربح ممكن : فكان يصدر فرمانات تنص على بيع سلعه للتجار الذين يفضل التعامل منهم ، كما كان يعمد الى رفع الأسعار بشتى الوسائل مما أدى الى شلل التجارة المحلية .

---

(٣) وثائق وزارة الخارجية البريطانية ـ الملف ٣٦٥/١٩٥ ـ الوثيقة رقم ١٠ من مرى لى كاننج بتاريخ ١٨٥٢/٤/٢١ .

(٤) راجع : على الجريتلى : تاريخ الصناعة فى مصر (القاهرة ١٩٥٢) ـ أيضا : Issawi, Egypt in Revolution (London, 1963), P. 43.

وفى عام ١٨١٨ كان تسعة أعشار التجار من المغامرين الأجانب الذين بدأوا نشاطهم دون رأسمال يذكر — فلدى وصولهم الى البلاد كانوا يقيمون علاقات مع أحد رجال حاشية الباشا ويطلبون منه أن يصدر لهم فرمانا يمنحهم كمية معينة من الحبوب التى يدفع ثمنها بعد مرور عدة أشهر على استلامها ، وهذا الثمن كان يساعدهم على الاتجار الذى تعززه صلاتهم ببعض رجال الحكومة (٥) . وكان بامكان هذه القلة من التجار المحظوظين من ايطاليين ويونانيين ، أن يقدموا لمحمد على قروضا مالية كان بعضها بمثابة عربون لثمن الحبوب المتوخى تقديمها (٦) . ومما أدى الى تعقيد احتكارات الحكومة تدخل قناصل الدول الذين كان عدد كبير منهم وكلاء للوالى وكانوا يمارسون تجارة واسعة النطاق عادت عليهم بأرباح طائلة (٧) .

وقد طبق نظام الاحتكار على البلدان الأخرى التى امتدت اليها سلطة الوالى ، وكان من الصرامة فى السودان بحيث توقف السكان عن احضار سلعهم الى الأسواق . وفرضت الحكومة ضرائب على نقل المنتجات من مكان الى آخر مما عرقل الحركة

---

(٥) Helen Rivlin, The Agricultural Policy of Muhammed Ali in Egypt, P. 175.

(٦) وثائق وزارة الخارجية البريطانية — بارنت الى كاننج فى اول ديسمبر ١٨٢١ .

(٧) محمد فؤاد شكرى وزميلاه ، بناء دولة — مصر محمد على (القاهرة ١٩٤٨) ، ص ٤٠٢ .

التجارية ــ اذ لم يستثن من احتكارات الحكومة سوى العبيد . وفى كريت جرى احتكار الزيت (٨) ، وفى الشام طبق نظام الاحتكار بوجه عام وبخاصة على الحرير . وكان هذا النظام من أهم العوامل التى جعلت محمد على يسعى الى التوسع فى شبه الجزيرة العربية خاصة وأن رغبته فى احتكار البن دفعته الى ارسال حملة الى اليمن (١٨٣٣ ــ ١٨٣٨) (٩) . وأدى كل ذلك الى اضمحلال تجارة الترانزيت بين افريقيا وشبه الجزيرة العربية (١٠) .

وقد جنى محمد على آرباحا طائلة من الاحتكار الذى كان الركيزة الأساسية لسياسته المالية وآداته لتجهيز جيشه وأسطوله والانفاق على حملاته الحربية . وفى ظل هذا النظام الاحتكارى أصبح محمد على فى الواقع هو الوحيد الذى يمسك بزمام حركة التصدير فى مصر ، اذ كان ما مقداره ١٩/٢٠ من تجارة الصادر حكرا عليه ، ولكن لم تكن له سيطرة مشابهة على الواردات ــ فقد كان يخضع للتعليمات الواردة فى مرسوم سلطانى كان ينص على أن اتفاقا دوليا قد تم التوصل اليه بين الباب العالى والتجار الأجانب الذين حصلوا على حق ادخال

---

(٨) زينب عصمت راشد : كريت تحت الحكم المصرى (القاهرة ١٩٦٤) .

(٩) بناء دولة ، ص ٥٥ ــ ٧٠ .

(١٠) خلاف ، ص ٣٤٥ .

سلعهم الى كل آرجاء الممتلكات السلطانية بشرط رفع رسم استيراد قدره ٢٪ ، وكان تطبيق هذه القاعدة يوفر للتجار الأجانب مركزا متميزا بحكم أنهم كانوا يدفعون رسوما أقل مما يدفعه الرعايا العثمانيون من مسلمين وغير مسلمين . على أن محمد على كان أكبر مستورد فى البلاد والدليل على ذلك أن ٤٠٪ من واردات عام ١٨٣٦ كانت لحساب الحكومة (١١) .

وقد تطور نظام الاحتكار الذى فرضه محمد على فى الوقت الذى كانت فيه التجارة الحرة قد وطدت أقدامها فى أوروبا الغربية ، خاصة وأن ازدياد الانتاج فى بريطانيا قد استلزم محاولة الحصول على فرص تجارية متزايدة وجعل الحكومة البريطانية تسعى الى دراسة أحوال التجارة فى شتى أنحاء العالم بهدف اعادة النظر فى المعاهدات القائمة والحصول على أحسن الشروط للتجارة البريطانية (١٢) . وتمشى السلطان العثمانى محمود الثانى مع اتجاهات بريطانيا بحكم أنه كان يسعى الى تدمير أكبر مصدر لدخل محمد على بحيث يمكنه أن يزعزع قدرته على الاحتفاظ بجيش قد يهدد السيادة العثمانية على مصر وأملاكها ، فعرض على الدول الأوروبية أن

(١١) A.E Crouchley, The Economic Development of Modern Egypt (London, 1938), PP. 88 — 9

(١٢) رفلن ، ص ١٨٢ — ٣ — ايضا كروتشلى ، ص ٧٥ — ٧٦ .

يمنحها تنازلات واعفاءات جمركية وذلك بهدف اقامة العراقيل في وجه الوالي واضعاف علاقاته بالدول العظمى • وفي عام ١٨٣٤ أصدر فرمانا ينهي الاحتكارات الحكومية في الشام ، وفي ١٦ أغسطس ١٨٣٨ وقعت الاتفاقية الانجليزية ـ التركية (أو معاهدة بالطة ليمان) (١٣) التي كانت تهدف الى تحطيم المارسات الاحتكارية في الامبراطورية العثمانية • وكان أهم ما نصت عليه هذه المعاهدة ما يلي :

١ ـ التبادل الحر للمنتجات •

٢ ـ منح الرعايا البريطانيين وضع الدولة الأولى بالرعاية وتمتعهم بكل المزايا الممنوحة لرعايا الدول الأخرى •

٣ ـ تحديد الرسوم على الواردات بـ ٣٪ مع اضافة ٢٪ على القطاعي والغاء الضرائب الاضافية على الواردات •

٤ ـ تحديد الرسوم على الصادرات بـ ١٢٪ وأن يدفع المصدرون الأجانب ٣٪ منها •

وحين أحاط محمد على بتوقيع معاهدة بالطة ليمان صرح بأنه سينفذ شروطها ، خاصة وأنه كان يدرك حاجته الى عطف

---

(١٣) يوجد نص الاتفاقية في :

J.C. Hurewitz, Diplomacy in the Near and Middle East Princeton, 1956) I, PP. 110 — 11.

الدول الأوروبية التي كان يسعى إلى الحصــول على مساعدتها له في صراعه المرتقب مع الدولة العثمانية • ولم يشترط الا أن يمتنع التجار الانجليز عن مطالبة المزارعين بشراء المحصــول قبل جنيه • على أن يتمكنوا من شرائه بمجرد نقله من الأرض ، كما سمح بأن يتمتع المزارعون بالحرية الكاملة في نقل محاصيلهم الى السوق وأن يتصرفوا فيها كما يشاءون وأن يبيعوها لمن يقبل شراءها (١٤) • وبعد أن انتهى نزاع محمد على مع الباب العالي صرح بأنه راغب عن الاحتكارات على اعتبار أنه مقتنع بأن حرية التجارة في مصلحته (١٥) • على أن القنصل البريطــاني العــام في مصر ــ الكولونيل بارنت ــ توقــع أن يحــاول محمد على التهرب والتسويف وتأجيل تطبيق التجارة الحرة على مصر وذلك لوجود أشخاص يفيدون من استمرار الأوضــاع القائمة نتيجة للنفوذ القوى الذى حصلوا عليه لدى الوالى الذى كانت مصلحته تنطابق مع مصالحهم (١٦)•وقد ثبتت صحة توقعات بارنت ، بحكم أن الوالى لم يكن على استعداد للاستغناء عن احتكاراته وأبدى رغبته في ابداء أقوى مقاومة ممكنة قبل أن يرغم بالتدريج على قبول شروط معاهدة بالطة ليمان والمعاهدات المماثلة

---

(١٤) رفلى ، ص ١٨٥ ـ ٦ •

(١٥) F.O. الملف ١٤٢/١٣ ــ الوثيقــة رقم ٥ من بارنت بتاريخ ١٩ أغسطس ١٨٤١ •

(١٦) نفس الملف ، رقم ١٨ من بارنت بتاريخ ١٩ سبتمبر ١٨٤١ •

الموقعة بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية الأخرى (١٧) .

وكان اللورد بالمرستون ، وزير الخارجية البريطانية ، يعتقد منذ البداية أن الاحتكار لا تقل آثاره اذا ما امتد الى بلد بأسره بدلا من امتداده الى جزء من هـذا البلد ، لأن هـذا الاحتكار كان يفرضـه الحاكم لمصلحته وحده بدلا من منحه لأشخاص معينين . وكانت الاحتكارات التى فرضها محمد على على مصر ، لمصلحته الخاصـة ، تتناقض مع المعاهدة نفس تناقضها فيما لو كان قـد منحهـا ليستفيد منها أشـخاص آخرون . وازاء استحواذ الوالى على مساحات واسعة من أراضى مصر فقد كان من رأى بالمرستون أنه ما لم يكن قد حصـل عليها عن طريق الشراء فلا يمكنه الاحتفاظ بها الا اذا اعتبر حائزا لها باعتباره ممثلا لسيده السلطان لا باعتبـاره واليا لا يتعدى كونه أحد رعايا السلطان (١٨) . ومما يجدر ذكره أن معاهدة لندن الموقعة فى عام ١٨٤١ كانت تنص على وجوب احترام كل المعاهـدات التجارية التى عقدها الباب العالى مع الدول الأجنبية .

وقد قدم محمد على المتجار بعض التازلات الصغرى حين

---

(١٧) بادرت الدول الآتية الى عقد معاهدات مماثلة مع الدولة العثمانية : النمسا ـ بلجيكا ـ فرنسا ـ عصبة الهانسا ـ سردينيا ـ السويد ـ النرويج ـ اسبانيا ـ هولندة ـ الدانمرك (بناء دولة ، ص ٥٩) .

(١٨) ملف وزارة الخارجية البريطانية ٧٨/٧٠٨ ـ بالمرستون الى كامبل فى ١٢ أكتوبر ١٨٣٩ .

سمح لهم بالاتصال المباشر بالفلاحين وذلك رغم احتفاظه بحق تحديد سعر السلعة وشراء المنتجات بالسعر الذى يحدده ما لم يشترها شخص آخر (١٩) • وفى أغسطس ١٨٤١ وجد بارنت أن معاهدة ١٨٣٨ لا تطبق وعزا ذلك الى عدم امتناع الأفراد عن تقديم الشكاوى الواضحة من الحكومة نتيجة لخرقها للمعاهدة اذ كان بعضهم يخشى اغضاب الوالى الذى كانوا يدينون له بثرواتهم ، فى الوقت الذى كان فيه آخرون يفضلون الوقوف موقفا سلبيا فى حين اعتقدت القلة ألا فائدة على الاطلاق من القيام بأى تحرك وأن من الأفضل ترك الأمور تسير فى مجراها • لهذا كله صعب على بارنت أن يعثر على حالة محددة تمكنه من أن يبنى عليها شكواه (٢٠) • وهكذا استمر احتكار السفن التى تبحر على النيل وترعة المحمودية ، وازاء عدم السماح بامتلاك السفن واستئجارها فقد ثبت ألا جدوى من حرية شراء منتجات البلاد (٢١) •

واشترك بارنت مع القنصلين العامين الروسى والفرنسى وعدد غير قليل من التجار البريطانيين فى الاحتجاج على هذا الاجراء ، فوعد محمد على بالاستجابة لاحتجاجاتهم • وكان تعليق بارنت على ذلك وجوب مواصلة الضغط على الوالى قبل

---

(١٩) رفلن ، ص ١٨٦ •

(٢٠) بارنت الى كاننج فى أول دسمبر ١٨٤١ •

(٢١) بارنت الى كاننج فى ٢٠ مارس ١٨٤٣ •

أن يتحقق ما يشبه حرية التجارة فى مصر وأنه ما لم يشد الباب العالى أزر بريطانيا بصـــدد تطبيق معاهـــدة ١٨٣٨ على مصر فسيجد محمـــد على باستمرار حججـــا لتنصله من تطبيق بنود المعاهدة التى تمس حقه فى الاحتكار .

وردا على الاحتجاجات المتكررة التى تقدم بها بارنت الى الوالى أكد محمد على مرارا وتكرارا رغبته فى الغاء الاحتكارات بالتدريج وتطبيق حرية التجارة على مصر . وأشار الى صعوبة اجراء تغيير مفاجىء على نظـــام استمر فترة طويلة وذلك رغم استغلاله لمعاهدة ١٨٣٨ فى رفع رســـوم التصدير والاستيراد . وحينئذ أبلغه بارنت أنه فى حالة عدم الغاء الاحتكارات سيضطر الى ابلاغ التجـــار البريطانيين بأنهم فى حل من عدم دفع الرســـوم الاضافية على التصـــدير والاستيراد التى نصت عليها معاهدة ١٨٣٨ ، وحث فى نفس الوقت على ضرورة اصـــدار أوامـــر واضحة للمديرين وغيرهم من الموظفين حتى لا يثيروا العراقيـــل أمام شراء القطن والحبوب وغير ذلك من منتجـــات مصر من المزارعين وطلب اعلان ذلك فى شتى ربوع مصر . ورغم نجاحه فى التوصل الى الغاء احتكار الأنبذة والخمور فقد كان يشـــك فى جدوى العمل على فرض الرسم بشكل آخر عن طريق فرض ضريبة على تجار القطاعى فى المدن (٢٢) . وقد أصـــدرت حكومة

(٢٢) الملف رقم ١٣/١٤٢ - رقم ٣ من بارنت بتاريخ ١٧ يناير ١٨٤٢ .

النمسا أوامرها الى قنصلها العام بالاشتراك مع بارنت فى القيام بجهد بصدد هـذه المسألة ، كما صدرت تعليمات الى قنصـل فرنسا العام بأن يبذل كل ما فى وسعه بالتنسيق مع قنصلى النمسا وبريطانيا لاقناع الوالى باتباع نظام البيع العلنى بالمزاد وهو ما وعد مرارا وتكرارا بتنفيذه (٢٣) .

ورغم ذلك كله فقد واصل محمد على اتبـاع سياسـة الاحتكار واقترح على بعض التجار أن يبيع لهم قطن مصر والسودان ومحاصيلهما بسعر مخفض فى مقابل بعض التسهيلات المـالية التى يقدمونها له (٢٤) . كما قرر بيع كمية كبيرة من القمح كان قد عرضها فى المـاضى على بعض الأطراف (٢٥) . وفى تلك الأثناء كان يفيد من بنود المعاهدة التى مكنته من رفع الرسوم على الصادرات والواردات . وكان بارنت يرى أن أهم المضـار التى كان من الممكن أن تواجه التجـارة البريطـانية ، فيمـا لو أمكنت ازالة كل المصاعب الأخرى ، ترتبط بالنظام الذى كان الوالى لايزال يفرضه فيما يتعلق بالاستيلاء على أراضى الفلاحين مما كان يعنى أنه يفرض بالتدريج احتـكارا لكل منتجـات

(٢٣) نفس الملف ، رقم ٩ و ٣٩ من بارنت بتاريخ ٢٣ فبراير ١٨٤٢ و ١٧ نوفمبر ١٨٤٣ .

(٢٤) من بارنت بتاريخ ٢٦ أغسطس ١٨٤١ .

(٢٥) الملف ٧٨/٥٤١ ـ رقم ٦ وزارة الخارجيـة الى بارنت فى ٣ ابريل ١٨٤٣ .

البلاد (٢٦) • فقد منح أفراد أسرته ما يقرب من كل شـفالك الصعيد وذلك سعيا منه الى التهرب من بيع محاصـيل هـذه الأراضى بالمزاد العلنى فى الوقت الذى كان يستطيع فيه أن يمنحها لأصدقـائه (٢٧) • كما كان قـد أصبح مالكا لثلثى الأراضى الصالحة للزراعة فى مصر وكان يضـع يده على نسبة كبيرة من منتجات الفلاحين التى كانت الحكومة تشترى قدرا منها بالسعر الذى تحدده وتأخذ قدرا آخر فى مقابل الضرائب •

ولهذا فاذا ما اعتبر مالكا للأرض كان حر التصرف فى المحصول ، أما اذا اعتبر حاكما لمصر فانه كان يتصرف فى الأراضى بالنيابة عن سيده السلطان وحينئذ كان عليه أن يطبق المـادة الثانية من معاهدة ١٨٣٨ (٢٨) • التى نصت على بيع محاصيل

---

(٢٦) من بارنت فى ٣ ينـاير ١٨٤٢ •

(٢٧) ٨٥٢/٧٨ ـ من بارنت بتاريخ ١٥ ينـاير ١٨٤٤ •

(٢٨) كان نص هـذه المـادة كالآتى : « يسمح لرعايا جلالة ملكة بريطانيا او لمندوبيهم بأن يشتروا فى كل الأماكن الداخلة ضمن الأملاك العثمانيـة (سواء بالنسبة الى التجارة الداخلية أو التصـدير) ، دون اى استثناء ، منتجات او تطوير او محاصيل هذه الأملاك ويتعهد الباب العالى رسميا بالغاء كل الاحتكارات المعروضـة على المنتجات الزراعية أو كل سـلعة أخرى ، وكذلك الغاء كل التصريحات التى يصـدرها الحكام المحليون لشراء اى سلعة أو نقلها من مكان الى آخر بعد شرائها • وكل محـاولة تبذل لارغـام رعايا جـلالة ملكة بريطانيا على استلام مثل هـذه التصريحات من الحكام المحليين ستعتبر خرقا للمعاهدات وسيوقع الباب العالى فى الحـال عقوبات قاسية على اى وزراء وغيرهم من الموظفين الذين يرتكبون مثل هـذه المخالفـات ، وسيجرى انصاف الرعايا البريطانيين ـ انطلاقا من أكبر قدر من العدالة ـ من كل الأضـرار والخسائر التى يثبت بمرور الزمن أنهم قد تعرضوا لها » •

الأراضى بالمزاد العلنى ، وهو ما كان يطبق فى استانبول على المحاصيل التى فى يد الحكومة العثمانية (٢٩) . وقد انصاع محمد على لضغط القناصل وأصدر تعليمات تقضى بمنح الأجانب حق بناء السفن من أجل استعمالهم الخاص وبأن ينقلوا عليها منتجات البلاد بشرط أن يقوم بالخدمة فيها ملاحون مصريون وأن تحمل العلم التركى . ولكن قبل أن يتمكن التجار من بناء السفن لمسوا صعوبة استئجار مزيد من السفن فى حين أن من كانوا يمتلكون سفنا لم يستطيعوا الحصول على ملاحين . وقد قيل فى ذلك ان احتكار السفن قد انتهى برغم كون الملاحين من رعايا الباشا الذين لا يمكنهم التصرف الا بحسب مشيئته (٣٠) .

وحاول بارنت اقناع الوالى بالتخلى عن احتكار وسائل النقل وفتح المناطق الداخلية من البلاد أمام ملاحة الأجانب وذلك رغم أن التجار البريطانيين كانوا لا يتجهون الا نادرا الى داخل البلاد بقصد شراء الحنطة أو غيرها من المنتجات ــ فهم كانوا يفضلون الشراء فى الاسكندرية على المتاعب والمخاطر الناتجة عن نقل السلع عن طريق النيل (٣١) . ولم يلتزم محمد على بأى وعد بصدد احتكار وسائل النقل ، بل انه احتكر الطريق البرى

---

(٢٩) الملف ٧٨/٥٤١ ــ رقم ٢٧ من بارنت بتاريخ ١٩ اغسطس ١٨٤٣ .

(٣٠) رفلن ، ص ١٨٧ .

الممتد بين القاهرة والسويس ، وفى عام ١٨٤٦ انتقلت خدمات النقل الى الحكومة المصرية وأصبح كل الموظفين الأوروبيين فى الشركة تابعين للحكومة وانقصت رسوم السفر من ١٥ الى ١٢ جنيها مما أدى الى سخط المسافرين البريطانيين والحكومة البريطانية التى حاولت دون طائل عقد معاهدة مع الوالى حول الطريق البرى بين القاهرة والسويس ، كما اشترى محمد على سفن شركة بننسولار وأورينتال التى كانت تقوم بالنقل النهرى على النيل .

ورغم أن محمد على لم يعرض قطنه فى المزاد العلنى ولم يبد أى استعداد للسماح لأى تاجر مستعد لدفع الثمن اللازم بالحصول على هذا القطن ، فان لورد بالمرستون لم يعتقد أن الوالى كان يسعى الى التهرب من شروط المعاهدة ، وكان يرى أن الأمر لا يستدعى تدخلا من جانب الحكومة البريطانية . فقد يكون الاجراء الذى اتخذه مربحا له ، ولكن حتى يتضح أن الرعايا البريطانيين لا يعاملون على نفس الأسس المطبقة على رعايا الدول الأخرى لم يكن ثمة مبرر للشكوى (٣٢) . لهذا كان من رأى بارنت أن الأمر يستلزم ابلاغ التجار البريطانيين بأنهم فى حل من عدم دفع الرسوم التى نصت عليها المعاهدة الا بعد أن تطبق كل نصوصها (٣٣) . وقد وافقت

---

(٣١) من بارنت بتاريخ ٢٠ مارس ١٨٤٣ .

(٣٢) من وزارة الخارجية الى بارنت بتاريخ ٢٥ يولية ١٨٤٣ .

الحكومة البريطانية على وجهة نظره هـذه ، ولكن لما كان سفيرها فى استانبول سير ستراتفورد كاننج (ستراتفورد دى ردكليف فيما بعد) قد ذهب الى أن الباب العالى قد تعهد باقناع محمد على بالغاء الاحتكارات وبأن يمتنع من اثارة ما يحمل الحكومة البريطانية على الشكوى منه فقد أرسلت التعليمات الى بارنت لكيلا يتخذ أى خطوات أخرى لحث الوالى على تنفيذ المعاهدة ما لم تصله تعليمات أخرى من وزارة الخارجية أو من كاننج وذلك بعد التأكد من نتائج التدخل الذى وعد الباب العالى بالقيام به (٣٤) • ولم ينكر الريس أفندى (وزير الخارجية التركى) عدالة الشكاوى البريطانية كما لم يعترض على موقف كاننج منها ، وان يكن قد أبدى كثيرا من التردد فى اصدار أوامر علنية لمحمد على فى ذلك الوقت ذاهبا الى أنه قد وعد بالغاء الاحتكارات بمجرد انتهاء مدة العقود القائمة خاصة وأن الصدر الأعظم قد كتب الى الوالى بنفس الفحوى الذى طالب به كاننج (٣٥) • الا أن بارنت لم يبد استعداده لتوقع نتيجة أيجابية جدا لمساعى الباب العالى بصدد تنفيذ المعاهدة فى مصر لأن محمد على كان يستند الى حزب قوى فى استانبول ولأن مشاكل الدولة العثمانية المالية كانت تحول

---

(٣٣) وزارة الخارجية الى بارنت بتاريخ ٢٤ مارس ١٨٤٢ •

(٣٤) نفس الوثيقة •

(٣٥) الملف ١٤١/٩ ـ رقم ٢ من كاننج الى بارنت فى ٥ مارس ١٨٤٢ •

بينها وبين اثارة محمد على الذى كان يحتمل أن يعمد الى تأخير دفع الارسالية التى كان على مصر أن ترسلها سنويا الى استانبول (٣٦) •

على أن محمد على أبدى فى مايو ١٨٤٢ استعدادا أكثر من ذى قبل للتمشى مع مقترحات بارنت والقناصل العامين الآخرين ، فوافق على أن يقوم فى المستقبل ببيع منتجات الأراضى التى يمتلكها بالمزاد العلنى ، فباع ٤٠٫٠٠٠ أردب من محصول بذرة السمسم المتوقع وباع كل كميات الحبوب التى توقع الحصول عليها بسعر يقل عما عرضه أربعة أو خمسة من التجار الذين اعتاد محاباتهم • وقد ألغى اتفاق البيع بعد تدخل بارنت • ومما تجدر الاشارة اليه أن الطلب قد اشتد على طلب بذرة السمسم فى فرنسا التى كان يجرى فيها استخدام زيت السمسم فى انتاج الصابون (٣٧) • كما وافق محمد على على تطبيق معاهدة ١٨٣٨ وذلك حين وعد بوقف احتكار القطن بعد جنى المحصول التالى •

ثم انتقل بارنت الى مسألة التعريفة التى حددت الرسوم الواجب دفعها عن مختلف سلع التصدير والاستيراد • وكان من رأيه أن التعريفة قد حددت دون ادراك كاف لمتوسط أسعار

---

(٣٦) الملف رقم ١٣/١٤٢ ــ المكاتبة رقم ١٨ من بارنت الى وزارة الخارجية ٢١ ابريل ١٨٤٢ •

(٣٧) نفس الملف ــ من بارنت الى وزارة الخارجية فى ١٥ مايو ١٩٤٢ •

السلع المصـــدرة أو لنوعية وقيمة السلع المنتجة التى كانت تشكل أكبر نسبة فى الصادرات البريطـانية الى مصر (٣٨) • وكانت كل السلع التى يجرى انتاجها فى بريطانيا وترد الى مصر تطبق عليها هـــذه التعريفة ، ولمـــا كانت معاهدة ١٨٣٨ تفرض تعريفة قدرها ٥٪ على الواردات و ١٢٪ على الصـــادرات فقد وافق محمد على فى النهاية على اقتراح بارنت الخاص بدفع رســـوم الاستيراد والتصدير (٣٩) • وبذلك أمكن التخلص من عقبـــة كبيرة بصدد تطبيق حرية التجارة فى مصر • ولكن رغم الغـــاء بعض الرسوم التى فرضت على البضـــائع لصـــالح التجـــارة البريطانية فقد ظل التجار البريطانيون يدفعون رسوما تزيد على ما كان يدفعه رعايا روسيا الذين كانت المعاهدات تسمح لهم باستيراد بضـــائع الى داخل الأملاك العثمانية بعد دفع رســـم الاستيراد البـــالغ ٣٪ وهو ما كان يدفعه التاجر البريطـــانى مقابل كل الرسوم الداخلية الأخرى • وبعد الغاء هذه الرسوم والرسوم الداخلية كان الرعايا الروس يتمتعون بكل مزايا الغائها

---

(٣٨) ـبلغ رسم تصـدير القطن اكثر من ٢٢٪ على حين بلغ رسم تصدير الصوف من ٢٠ الى ٢٥٪ وبن مخا ١٤٪ والقرطم ٥٠٪ وقرون الجـاموس والبقر ٢٢٪ والافيون ١٥٪ وكل أنواع الحبوب ما يتجـاوز ١٢٪ وبلغ رسـم استيراد الاقمشة القطنية حوالى ٩٪ بدلا من ٥٪ •

نفس الملف ـ رقم ٢٠ من بارنت الى وزارة الخارجية فى ٢٠ مايو ١٨٤٢ •

(٣٩) من نفس الشخص فى ٢٦ مايو ١٨٤٢ •

دون أن يدفعوا مقابلا لذلك مما أعطاهم ميزة ٢٪ على الرعايا البريطانيين (٤٠) .

كما طبق نظام الاحتكار على السودان الذى ظل تحت الادارة المصرية بعد عام ١٨٤١ طبقا لفرمان خاص منح لمحمد على الذى سبق ان رأينا أنه كان منذ البداية قد اقترح على تجار معينين أن يبيع لهم محاصيل القطن والقمح فى مصر والسودان مقابل الأموال التى يدفعونها له بين وقت وآخر وأن يسلم هذه المحاصيل بثمن أقل من سعر السوق . وكان معنى هذا احتكار محمد على لمحاصيل مصر والسودان وأن يكون التجار القليلون الذين يحصلون على هذا المحصول هم البائعون الوحيدون له ، وكان من المفهوم أنه سيتقدم ما لايزيد على ستة تجار ، ومعنى ذلك فرض احتكارين مما جعل من المستحيل أن تتنافس هيئة التجار فى شراء أو بيع السلع لمن امتلكوها بهذه الوسائل . وقد يجوز القول بأن الوالى بتنظيمه هذه الشركة من المشترين قد تهرب من وعده بتنفيذ بنود معاهدات الامبراطورية العثمانية مع الدول الأجنبية . وهكذا اتضح أن الاجراء المقترح كان شديد الوطأة على التجارة العامة وعلى التجارة البريطانية بالذات وذلك على اعتبار أن المحتكرين لن يعجزوا عن أن يبيعوا لمواطنيهم وغيرهم بأعلى الأسعار فى الوقت

---

(٤٠) الملف ٨/١٤١ روبرتسون الى بارنت ـ أول مارس ١٨٢٣ .

الذى تعترضهم فيه منافسة فى السوق العام (٤١) . وفى مارس ١٨٤٢ أعلن بوغوص بك وزير التجارة والشئون الخارجية فى مصر أن الوالى قد أصدر أوامره الى حاكم سنار بأن يطلق العنان للاتجار بسلع البلاد من الحنة والصمغ والعاج والجلود ونبات السنا . وصدرت فى نفس الوقت أوامر من الوالى لنفس الحاكم بشراء كل هذه السلع لحسابه مما كان يعنى عودته الى سياسة الاحتكار وتطبيقها لمصلحته الخاصة (٤٢) .

ومن الطبيعى أن تتجه كل منتجات سنار الى مخارج لتجنب الأرباح الطائلة التى سعى الوالى المحتكر الى الحصول عليها ـ وكانت أهم هذه المخارج ميناء مصوع وسواكن الواقعان على الساحل الغربى للبحر الأحمر . ولما كان محمد على مصمما على تحقيق هدفه بكل الوسائل الممكنة فقد حصل من الباب العالى على حكومة المدينتين مما جعله يغلق كل المنافذ أمام منتجات سنار ويحمل تجار الصمغ الأوروبيين فى جدة وغيرها على الاعتماد عليه فى الحصول على هذه السلعة (٤٣) . وكان وضع الوالى فى السودان أضعف منه فى

---

(٤١) الملف ٧/١٤١ ـ رقم ٢٦٤ من بونسنبى الى بالمرستون فى ٣ اغسطس ١٨٤١ .

(٤٢) ٢٠٩/١٩٥ ـ بارنت الى كاننج فى ٦ ابريل ١٨٤٢ ـ أيضا ٧٠٨/٧٨ رقم ٤٩ من مرى الى بالمرستون فى ١٠ اغسطس ١٨٤٧ .

(٤٣) ١٠٨/٧٨ رقم ١٤ من مرى الى كولى فى ١٥ يوليه ١٨٤٧ .

مصر : فعلى حين أنه كان يحكم مصر على أساس وراثى فقد عهد اليه بباشوية سنار برغبة السلطان ورضاه ، خاصة وقد نص الفرمان على كونها باشوية منفصلة لا ينطبق عليها مبدأ الوراثة • وقد أدى هـذا الى احتجاج كل من بريطانيا وفرنسا والنمسا فى كل من القاهرة واستانبول • وفى يونية ١٨٤٨ أصـدر الصـدر الأعظم فرمانا (٤٤) الى والى مصر يأمره فيـه بأن يمتنـع عن احتـكار منتجـات سـنار • بل ان القنصـل البريطـانى العام ــ مرى Murray ــ ذهب الى أن تردد الوالى أو امتناعه عن تطبيق المعاهدة من شأنه أن يستتبع حث الباب العـالى على خلع باشوية سنار على موظف يرسل من استانبول رأسـا واسترجاع الباب العالى لحكومة مصوع وسواكن بعد وفـاة محمد على (٤٥) • وفى نوفمبر من نفس العام وافقت الحـكومة المصرية على وضع حد لاحتكار سـنار بعد ثلاثة أشهر (٤٦) • وصدرت الأوامر الى حاكمى مصوع وسواكن بألا يعرقلا تصدير الصموغ والسنا التى يمتلكها التجار البريطانيون (٤٧) •

---

(٤٤) ١٥/١٤١ (نسخـة) الصـدر الأعظم الى باشـا مصر بتـاريخ ٦ يونيـة ١٨٤٨ •

(٤٥) ١٦/١٤٢ ــ رقم ٢٧ من مرى الى بالمرستون فى ٣ يوليه ١٨٤٨ • نوفمبر ١٨٤٨ •

(٤٦) ٧٦٥/٧٨ ــ من وزارة الخارجية البريطانية الى مرى بتاريخ أول نوفمبر ١٨٤٨ •

(٤٧) ٧٥٧/٧٨ ــ من أرتين بك الى مرى فى أول يوليه ١٨٤٨ •

وفى عهد عباس الأول ألغيت احتكارات سنار وأطلقت حرية تجارة الصمغ والسنا ــ وبقية منتجات هــذا الاقليم • كمــا أعاد عباس سواكن ومصوع الى الدولة العثمانية بسبب بعدهما عن مصر ولأن محمد على لم يحصــل عليهما الا للسيطرة على المخرج الشرقى الوحيد لمنتجات سنار والسودان ــ وقد وضعت هاتان المدينتان منذ ذلك الوقت تحت ســلطة باشا جدة • ولم تتردد الحــكومة البريطــانية فى تعيين ممثل قنصــلى فى الخرطوم بامكانه حماية التجار البريطانيين الذين ازداد نشاطهم ، منذ الغاء احتكار الصمغ والسنا ومنتجات سنار الأخرى ، فى الاتجار بهذه السلع[٤٨] • وفى عهد عباس الأول تدهورت التجارة الداخلية والخارجية وكانت النتيجة هى أن كميات ضخمــة من المنتجات والحبوب والقطن تكدست فى شــون الحكومة لعدم صلاحيتها للبيع بثمن يبلغ ٦٠٪ من القيمة التى كانت عليها فى العام السابق ــ وفى الوقت الذى كانت فيه الموارد الانتاجيــة فى مصر تعانى من الشلل استمر الانفاق على بناء القناطر الخيرية

---

(٤٨) (١٧/١٤١ رقم٤ وزارة الخارجية الى مرى فى ١٢ مارس ١٨٥٠) • فى الوقت الذى كانت فيه المدينتان تخضعان لحكام يعينهم الباب العــالى رأسا نشطت التجارة الى حد كبير بينهما وبين جدة وبومباى وأماكن أخرى قام بالاتجار فيها تجار معظمهم بريطانيون وانجليز ــ هنود (١٦/١٤٢ ــ رقم ٦ من مرى لكاننج فى ١٨٤٨/٦/٢٥) •

والترع والتحصينات وغيرها من الاستعدادات الحربية (٤٩) • وكانت الخزانة خاوية وكانت كل ادارات الخدمة العامة مفلسة باستمرار وكانت القسوة الشديدة لاتزال تصطنع فى ارجاع الفلاحين الى شفالك الوالى بعد أن دفعهم سوء المعاملة والعوز الى مبارحتها (٥٠) • وحين وجدت الحكومة المصرية ألا فكاك من تطبيق بنود المعاهدات وافقت على الغاء الرسوم التى كانت مفروضة حتى ذلك الوقت على بولاق ، ميناء القاهرة (٥١) •

وفى عهد عباس جرت تغييرات كثيرة أثرت فى تجارة مصر وعلاقاتها الخارجية ــ فقد طبق دون هوادة أمر صدر لأول مرة فى عهد محمد على وبمقتضاه كان لايمكن تنفيذ أن اتفاق لشراء المحصول من الفلاحين عن طريق الدفع مقدما ، وذلك بالموافقة الضمنية من جانب القناصل العامين • وكان كل ذلك فى البداية

---

(٤٩) ٦٢٣/٧٨ ــ بارنت الى بالمرستون فى ١٨٤٨/٦/١٧ ورسالة اخرى مؤرخة ١٨٤٨/٧/٣ •

(٥٠) نفس الملف ــ بارنت الى كاننج فى ١٨٤٥/٣/١٤ •

(٥١) ٣٣٠/١٩٥ ــ رقم ٢٩ من مرى الى بالمرستون فى ١٨٤٩/٣/١٩ •
جرت محادلة بين مرى وأرتين • وقد رد مرى على ملحوظات أرتين عن صعوبة وضع حد للتهرب بأن مثل ذلك يحدث بدرجة أكبر فى انجلترا وفرنسا وأن من واجب الحكومة أن تواجه هذه الصعوبات وتتغلب عليها باقامة مراكز جمركية تتميز بالكفاءة فى مدن وموانى الحدود لا فى أماكن بالداخل لما يتضمنه هذا من خرق للاتفاقيات التجارية القائمة •

(٣٣٠/١٩٥ ــ رقم ٦ من مرى الى كاننج بتاريخ ١٢ مارس ١٨٤٩) •

موضعا لبعض الشكوى من جانب صغار التجـار والوكلاء الذين اعتادوا على زيارة الأقاليم لشراء كميات صغيرة من المحصـول كانوا يقومون ببيعها فى أسواق القاهرة والاسكندرية • على أن مثل هـذه الشكاوى لم تقدم فيما بعد ـ وقيل ان عهد عباس الأول الذى تميز بالتسـاهل آدى الى اهمـال هـذا القـانون الذى لم يلغ على أى حال • وكان هـذا يجرى فى بعض المناطق بعلم من الحكام المحليين كما وجد نظام يقوم على التهرب كان يتبع بنجاح بوجه عام • وكان الشخص الذى يتقدم بعروض الى الفلاحين بشأنمحصـول لم يتم جنيه يحصـل من المزارع ، بدلا من عقد بالصورة المـألوفة ، على كمبيـالة مالية بمبـلغ لا يشتمل فقط على النقود التى دفعها بل أيضا على مبلغ آخر من شأنه ، حسب تقديره ، أن يواجه ثمن السلعة فى الوقت المتوقع للتسليم • وكان ثمة اتفاق شـفهى بين الأطراف ، وحين كان الفلاح يسلم المحصـول كان مندوب التاجر يعفيه من تعهده المـالى ، واذا ماعجز عن تسليم المحصول كان بالامكان أن يطلب من المحكمة المحليـة تنفيذ الشروط المـالية للعقد التى كانت تشتمل على ربح كبير • وكان يبدو أن هـذا الاجراء شاذ رغم كونه مضمونا ، وكان بوجه عام مفيدا لحمـاية الأطراف المستعدة للتقدم بعروض للمزارعين •

أما الوكالات الكبيرة فلم تتعرض لأى ضرر طالمـا كانت الحكومة تبيع محاصيلها بالمزاد العلنى • وكانت هـذه المزادات

تجرى بطريقة عادلة ، وفى فترات منتظمة أيا كانت حالة الأسواق. وعلى حين أن محمد على كان يبيع لحوالى اثنتى عشرة وكالة معظمها يونانية وفرنسية كانت تبيع لتجار آخرين بأسعار عالية ، فان عباس كان يبيع بالمزاد (٥٢) . وقد ثار التجار واحتج قناصل النمسا وسردينيا وتسكانيا على ما اعتبروه محاولة من جانب الوالى لاحتكار كل المحصول وعرقلة اتصال التجار بالفلاحين بهدف جعل منافسة الأجانب له أمرا مستحيلا (٥٣) . وكان فى الواقع قد أصدر منشورا دوريا يقضى بسريان النظام الذى كان يطبق حتى ذلك الوقت من حيث تسليم المزارعين محاصيلهم لبيوت تجارية قبل أن يدفعوا الضرائب المستحقة للحكومة وأن أى أشخاص يشترون من مزارعين مدانين نتيجة لذلك قد يتعرضون لالغاء صفقاتهم ومصادرة بضائعهم (٥٤) ، مما يعنى العودة الى نظام الاحتكار القديم وخرق المادة الثانية من معاهدة ١٨٣٨ . وقد احتج قنصل بريطانيا العام — بروس — على هذا الاجراء وأصدرت الحكومة البريطانية تعليماتها الى سفيرها فى استانبول لكى يبلغ الحكومة العثمانية بأن النظام الذى يطبقه الوالى يشكل بصريح العبارة خرقا للمعاهدة (٥٥) .

---

(٥٢) ٩٦٦/٧٨ من والن الى باجت بتاريخ ٧ يناير ١٨٥٣ .

(٥٣) نفس الملف — رقم ٧ من باجت الى رسل بتاريخ ١٨٥٣/١/٣٠ .

(٥٤) نفس الملف — رقم ٦ من باجت الى رسل بتاريخ ١٨٥٣/١/٨ .

(٥٥) ١٠٣٤/٧٨ مسودة رقم ٣٦ من وزارة الخارجية الى بروس بتاريخ ١٨٥٤/٦/١٦ .

يضاف الى ذلك أن عباس أصدر أمرا فى سبتمبر ١٨٥٣ يقضى بتحريم تصـــدير الحبوب بحجة أن فيضـــان النيل قد دمر نسبة كبيرة من المحصول • وازاء احتجاج القناصل وافق الوالى على تصـــدير الكميات الموجودة فى الاسكندرية • ورغم سماحه بنقل الحبوب الى الاسكندرية فان الحكومة لم تسمح بالتصدير الحر ولم يفرج عما تمتلكه الحكومة أو الوالى لكى يشق طريقه الى السوق (٥٦) • كما أصدر عباس أمرا ينص على أن تتوقف السفن المحملة بالحبوب فى العطف ــ حيث يلتقى النيل بترعـــة المحمودية • وقد احتج بروس على ذلك وباشر الضغط من أجل تطبيق المعاهدات وصرح للسلطات المصرية بأن الوالى سيضع نفسه فى مركز حرج بحكم أنه سيجعل ادارته المنفصـــلة لمصر لا تتمشى مع تشدد الباب العالى فى تطبيق معاهداته • وقد قيل ان الوالى قد اتبع هـــذا الاجراء لكى يستولى على المحصـــول بثمن بخس على أن يبيعه بعد ذلك بما يعود عليه بالفائدة ، على حين رأى آخرون على معرفة جيدة بالبـــلاد أنه كان يخشى أن تطلب منه تركيا أن يزودها بكمية كبيرة من الحبوب ــ وقد ساد الاعتقاد بأنه كان يرغب فى الحصـــول على السلاح بحجـــة المحافظة على الأمن موفرا بذلك حجة لرفض طاعة الأوامر (٥٧) •

وقد صرح عباس بأن الحكومة العثمانية طلبت من مصر أن

---

(٥٦) ١٠٥٣/٧٨ من بروس الى كلارندون بتاريخ ١٨٥٤/٢/١٦ •

(٥٧) نفس الملف ـ رقم ٤ من بروس الى كلارندون بتاريخ ١٨٥٤/٢/٢ •

تزودها بالحبوب ووعد بأن تدفع تسعين قرشا فى مقابل أردب القمح حين يتم تسليمه الى استانبول (٥٨) • ولما كان شديد اللؤم ولم يكن على استعداد لبذل التضحيات فى سبيل الحرب الناشبة بين تركيا وبريطانيا وفرنسا من ناحية وبين روسيا من جانب آخر ، فانه استحوذ على كل قطن البلاد ولم يقم ببيعه مما يدل على حرصه على أن يشاع عنه أنه يواجه صعوبة فى الحصول على الأموال اللازمة للاصلاحات الداخلية التى كان يقوم بتنفيذها وأنه لم يدخر وسعا فى مساعدة الباب العالى ، وذلك رغم أنه لم يتبين أن موارد مصر وأحوالها كانت معروفة تماما فى استانبول (٥٩) • ولما وجد عباس أن اليونانيين هم المشترون الرئيسيون لمحاصيل المناطق الداخلية فى مصر فقد قرر طردهم جميعا من البلاد • وقد اشتد حاكم الاسكندرية فى تنفيذ الأوامر الصادرة اليه بهذا الصدد ، وحين بدا أن احتجاجات الدول الحليفة لم تكن موضع اهتمام بعد أن طالبت باطالة أمد المهلة لصالح اليونانيين الذين كان من المحتمل أن تتعرض تجارتهم واسعة النطاق مع البيوت التجارية لخسائر كبيرة فقد تم منح

---

(٥٨) ١٠٣٦/٧٨ رقم ٢٨ من بروس بتاريخ ١٨٥٤/٦/١٦ •

(٥٩) نفس الملف رقم ٣٤ من بروس بتاريخ ١٨٥٤/٧/٥ • ولم يستلم عباس رسالة الباب العالى بصدد الاجراءات التى اتخذها بصدد احتكار بيع الحبوب ، وذلك نتيجة لوفاته المفاجئة (١٨/١٣٢ — رقم ٧ من بروس الى ستراتفورد دى ردكليف) (ستراتفورد كاننج فى السابق) بتاريخ ١٨٥٤/٨/٤ •

معظمهم الحماية الأجنبية . وكان عباس الذى سعى الى احتكار محاصيل البلاد قد وجد فى التجار اليونانيين عقبة كأداء وقرر التخلص منهم (٦٠) ، خاصة وأن نشاطهم ومعرفتهم بلغة الأتراك وعاداتهم قد جعل منهم منافسين أقوياء . الا أن السفير البريطانى فى استانبول أصدر منشورا دوريا طالب فيه بالسماح للرعايا اليونانيين العاملين فى البيوت التجارية البريطانية أو فى خدمة الرعايا البريطانيين بوجه عام بالبقاء على مسئولية من يقومون بالعمل لحسابهم أيا كان نوعهم وبأن تزودهم السلطات العثمانية « ببطاقة أمان » وذلك باستثناء الحالات التى يثير فيها سلوك أحد الطرفين شكوى خاصة من جانب البوليس (٦١) .

وكان موقف عباس من اليونانيين مرتبطا بسياسته الداخلية العامة . فقد كانت الأملاك التى ورثها أبناء محمد على وابراهيم عبارة عن عهد وشفالك (بمعنى أنها كانت فى السابق فى أيدى المماليك) ـ وكان حائزو الشفالك لا يدفعون أى ضرائب للحكومة ؛ ولم يستول عليها عباس استيلاء مباشرا ، ولكن لما كان يسعى الى الحاق الضرر بحائزيها فقد انتوى تحقيق هدفه على الوجه التالى : فقد سعى حكام الأقاليم الى حرمان الملاك من الأموال اللازمة للزراعة بحيث ان الفلاحين كانوا

---

(٦٠) ١٠٣٥/٧٨ ـ من بروس الى كلارندون بتاريخ ١٩٥٤/٥/١٦ .
(٦١) نفس الرسالة .

يزرعون الأرض لحسابهم حين يجدونهـا غير مزروعة ـ ومن الناحية القانونيـة كان يطلب منهم أن يدفعوا للمالك مبلغـا يساوى قيمة ضريبة الأرض ولو أن تعليمات صدرت الى الحكام لكيلا يلبوا مطـالب المـالك الذى لم يعد يحصل على أى دخل منها مما اضطره الى تركها بعد وقت قصير . وكان ابراهيم باشا قد خلف ما ينوف على ٧٠ قرية اعتبرت عهدا وقـام عبـاس بوضع يده عليها وبذلك حرم منها أبناء ابراهيم . وكان شاغل العهدة يقدم رأس المـال ويقوم بزراعة السكر والقطن التى تتكلف كثيرا من النفقات . وكان مشايخ القرى الأغنياء يلعبون فى زراعة نواحيهم دورا لا يقـل عن ذلك أهميـة . وبعد أن تضعضت أحوالهم أدت اجراءات الحكومة الخاصـة بالضغط عليهم وارغامهم على الاستدانة الى تمكينها من الاستيلاء على أموالهم الوفيرة . وتدهورت الزراعـة التى كانت مصـدرا لأرباح طائلة بعد أن حرمت الأراضى من خدمات الرأسماليين فى الوقت الذى لم تفعل فيه الحكومة شيئا لملء الفراغ . ولم يقم الوالى باستثمار الأراضى الأقل خصـوبة مما أدى الى لجوء الفلاحين المحرومين من مساعدة الرأسماليين المحليين الى عمـلاء البيوت التجارية الذين كانوا يقدمون لهم سلفا بضمان المحاصيل . ولمـا كان عباس شديد الرغبـة فى حرمانهم من هـذا المصدر فقد سعى الى اعادة العمل بمنشور دورى كان محمد على قد أصدره ونص على تحريم بيع المحاصيل غير الناضجة ، والى

ارهاب هؤلاء العملاء الذين كان بامكانهم تشجيع الفلاحين على عدم التعامل مع مندوبي الحكومة والاستناد الى الامتيازات الأجنبية لكى يدافعوا عن أنفسهم فى مواجهة قسوته (٦٢) .

وحين توفى عباس ترك مالية الدولة مدينة بما يقارب مائة مليون فرنك فى الوقت الذى كانت فيه خزانة الدولة خاوية تماما (٦٣) . وقد ابدى خلفه محمد سعيد باشا بعض الميول اللبرالية (٦٤) كما أبدى تسامحا مع الأجانب وصل الى حد الضعف . ومرجع بعض هذا التسامح أنه كان يطمح الى تحقيق استقلال مصر . ولما كان تفوق العناصر الاسلامية فى البلاد — فى رأيه — يقوى قبضة السلطان على مصر فقد اعتقد أن اضعاف هذا النفوذ وتقوية النفوذ المسيحى والأوروبى من شأنهما زعزعة سلطة السلطان وتمكينه هو من الحصول على أنصار وحماة له (٦٥) . كما لم يتصف بالتعصب الذى تميز به عباس وكان شديد الحماسة للأخذ بأى اقتراحات تستهدف تحسين أحوال البلاد (٦٦) . وكان فى نظر من يعرفونه رجلا طيبا

(٦٢) ١٠٣٦/٧٨ — رقم ٢٤ من بروس الى كلارندون بتاريخ أول يونية ١٨٥٤ .

(٦٣) A. Sammerco, Les Règnes de Abbas, de Said et d'Isamail (Rome, 1935), P. 8.

(٦٤) J.C Mc Coan, Egypt as it is (London, 1877), P. 81

(٦٥) ٧٢٢/١٩٥ — رقم ٧ من بروس الى رسل بتاريخ ١٨٦٣/١/٥ .

(٦٦) ٤١٢/١٩٥ — رقم ١٥ من بروس الى ردكليف فى ١٨٥٥/٧/١٧ .

حسن النية وان تكن حالته الصحية وقلة نشاطه لا تسمحان له بأن يكون له تأثير دائم على أحوال مصر خلال فترة حكمه (٦٧) •

وكان سعيد منذ بداية حكمه يرغب في التخلص من الطابع المركنيتلى الذى سبق لأسلافه أن فرضوه ولهذا لم يضع عقبات في وجه التجار الراغبين في التعامل مع الفلاحين في الداخل• وكان تعليق قنصل بريطانيا العام أن تنفيذ النظام من شأنه أن يثرى الفلاح وأن انشاء وكالات أوروبية سيستتبع في المستقبل اتباع مفاهيم ادارية أكثر استنارة في الداخل وتأمين المزارع على أملاكه ، خاصة وأن عدم توفير الأمن حتى ذلك الوقت كان يؤخر تنفيذ كثير من خطط الاصلاح في مصر • وأضاف أن سعيدا ذو صفات طيبة وأن أفكاره الاصلاحية معقولة ولو أن طبيعته كانت تتضمن بعض العيوب التى تجعل تحقيقها أمرا صعبا ـ اذ كانت تستهويه المشروعات الضخمة دون أن يتصف بقوة التحمل والعزيمة اللازمين لتنفيذ الاصلاحات الاجتماعية (٦٨) •

وقد عمد سعيد الى الاعتراض على كل ما قام به سلفه مما كان يتناقض تماما مع كل ما انتواه من اصلاح الادارة • ويبدو أنه كان يرى أن أحسن وسيلة لاعادة تنظيم مختلف

(٦٧) Dicey, Story of the Khedivate (ondon, 1890), P. 222.

(٦٨) ٤١٢/١٩٥ . بروس الى ردكليف فى ٨٥٥/٧/٨ •

الادارات التى كانت قد تدهورت كثيرا فى عهد عباس هى الغاؤها كلية وتبرير ذلك بخفض النفقات وضرورة الوفاء بالديون التى خلفها عباس ولو أنه سار على نقيض سياسة سلفه القائمة على الاعتماد على العنصر العربى على حساب العنصر التركى — وقد أخبر قنصل بريطانيا العام بأنه يستهدف ألا يكون لديه من الضباط سوى الأتراك خاصة وأنه كان يعتقد أن العرب لا يصلحون لأى وظيفة عليا مما كان ينذر بوقوعه فى أيدى أنصار فرنسا الذين اعتبرهم أولى بالرعاية نتيجة لاضطهاد عباس لهم خاصة وأنه فتح أبوابه لهم وهو ما لم يفعله مع التجار البريطانيين (٦٩) .

وقد ترتبت على كل ذلك سلسلة من الاصلاحات اللبرالية أهمها الغاء الرسوم الجمركية الداخلية وكل الاحتكارات وبذلك تحققت حرية التجارة ولم تعد توجد عوائق تعترض الأشخاص الذين يتجرون فى الداخل مع المنتجين المحليين . وكانت النتائج مواتية جدا للملاك ، واشتد الطلب فى الاسكندرية على الصادرات مما أدى الى ارتفاع أسعار الحبوب فى المناطق النائية حتى أسوان خاصة وقد ألغى جمرك بولاق الذى طالما كان موضعا للسخط والاحتجاجات عديمة الجدوى ، كما ألغى

---

(٦٩) ٤١٢/١٩٥ بروس الى وزارة الخارجية فى ١٨٥٤/١٢/١٦ .

النظام السيىء الخاص برسوم الدخولية (٧٠) • الا أن الغاء نظام الاحتكار بهذا الشكل قد أفسح المجال أمام المغامرين الأجانب فى حين أن الأشخاص الذين نالوا حظوة الوالى قد اهتموا بالسعى الى الحصول على امتيازات لهم دون غيرهم بصدد تنفيذ مشروعات لم يكن لمصر سابق عهد بها • وكان لابد لهذا النظام أن يكون شديد الضرر لأنه منح مزايا لأشخاص كانوا قد نالوا حظوة الوالى وبالتالى فانه تضمن قيودا على اصلاحات المستقبل وعرض شعب مصر وتجارتها للأسعار التى كان هؤلاء المحتكرون يسعون الى فرضها (٧١) •

وأثبت ضعف سعيد شدة اضراره برخاء مصر لأنه أفسح المجال لتدخل القناصل الأجانب الذين حقق كثير منهم أرباحا عن طريق استغلال مناصبهم بأساليب غير شريفة • وكان القناصل العامون الذين يتقاضون أجرا هم قناصل فرنسا والنمسا واليونان وبروسيا وبريطانيا واسبانيا والولايات المتحدة وسردينيا وروسيا • أما القناصل الذين لم يتقاضوا أجرا وكانوا يمارسون التجارة فهم قناصل هولندة وبلجيكا وتسكانيا ونابولى والدانمرك وعصبة الهانسا والبرتغال والسويد • وكان معظم القناصل الذين لا يتقاضون أجرا من مواطنى البلاد التى

---

(٧٠) ٥٢٢/١٩٥ ـ رقم ٨ من بروس الى وزارة الخارجية فى ١٨٥٧/٢/٢ •

(٧١) ١٣٣٨/٧٨ ـ رقم ٢١ من بروس فى ١٨٥٧/٣/١٣ •

يمثلونها — وعلى سبيل المثال كان قنصل نابولى مشرقيا عاديا جمع ثروة . وكان بعض القناصل قد اشتروا وظائفهم لاستغلال الفرص التى توفرها للحصول على صفقات الحكومة دون أن يسبق لهم تلقى أى تعليم خاص يمكنهم من الاضطلاع بالواجبات القضائية المطلوب منهم القيام بها . ومن الطبيعى أن يكون هدفهم هو اقامة علاقات طيبة مع الحكومة المحلية واستغلال سهولة اتصالهم بالوالى باعتبارهم قناصل عامين (٧٢) . وترتب على كل ذلك أن لعب هؤلاء القناصل دورا حاسما فى فتح أبواب مصر للرأسمالية الغربية النامية ولهجرة الأوروبيين (٧٣) الى البلاد ، كما قاموا بالضغط على الحكومة المصرية للحصول على تعويضات عن خسائر كانت وهمية فى كثير من الأحيان . وقد سجل قنصل بريطانيا العام رأيه حول الدور الذى لعبه أمثال هؤلاء القناصل على الوجه التالى : « تنفق نظرة هؤلاء السادة الى المسائل العامة مع يفيد مصالحهم أكثر من اتفاقها مع سياسة الحكومة التى يمثلونها ، ففى بداية عهد سعيد فى الوقت الذى كانت تناقش فيه فوائد وضع حد لسياسة احتكار الحكومة للمحاصيل،

---

(٧٢) ١٢٢٢/٧٨ — رقما ١٣ و ٢١ من بروس الى كلارندون بتاريخ ٤/٤/ و ١٨٥٦/٥/٢٥ ..

(٧٣) رغم عدم وجود احصائيات دقيقة فى مصر حتى عام ١٨٩٧ يقدر عيسوى عدد الأجانب فى مصر فى عام ١٨٣٦ بثلاثة آلاف وفى عام ١٨٧٨ بأكثر من ثمانية وستين ألفا وفى عام ١٩٠٧ بمائتى ألف وواحد وعشرين ألفا .
Issawi, Egypt in Revolution (London, 1963), P. 43.

وهي السياسة التي سعى عباس باشا مؤخرا الى اعـادة تطبيقها ، كان من أشـد معارضي وجهات نظره اللبرالية قنصل بلجيكا العام الذي لاشك أن تصريحاته لم تكن تنسجم مع سياسـة الحكومة البلجيـكية الخاصـة بمثل هـذه الأمور » (٧٤) •
وكان من رأي بروس أن مصالح الدول الأجنبية وتركيا ذاتها كانت تتطلب عدم خلع الصلاحيات القضائية واسعة النطـاق التي كان يتمتع بها القناصل الذين يمثلون الدول الأجنبية في المشرق، الا على أشخاص يشتغلون بالتجارة وأن دخولهم في سـلك وظائف الدولة التي ينتمون اليها وتلقيهم مرتبات كافية مما يوفر ضـمانا كافيـا لاسـتقلاليتهم وأداء مهـامهم بوحي مـن الضمـير (٧٥) •

وكان سعيد تركيا ـ وكان من عادة الأتراك ، في الوقت الذي يتبينون فيه أن ممثلي الدول الأجنبية يشتركون في المطالبة بقسط من المكاسب الناتجة عن انتهابهم للمواطنين ويسـاندون ادعاءات ناتجة عن صفقات غير قانونيـة أن يعتبروهم على صلة بالسماسرة الذين لم يكن لهم من هدف سوى انتهاب الأتراك • وبطبيعة الحـال كانوا يدركون أن أحسن وسيلة للحصول على مساندة أي قنصل عام وللتوصـل عن طريقه الى كسب ثقـة

---

(٧٤) ٢٠/١٤٢ ـ رقم ٩ من بروس الى وزارة الخارجيـة بتـاريخ ١٨٥٧/٣/١٤ •

(٧٥) نفس الملف ـ رقم ٦ من بروس أيضا بتاريخ ١٨٥٧/١/٢٤ •

الحكومة التى يمثلها هى أن يخلعوا على مواطنيهم نسبة مبالغا فيهـا من المزايا على حسـاب مصلحـة التجارة والحـكومة ذاتها (٧٦) • لهذا كله اعتبر سعيد السلك القنصلى عدوا طبيعيا له بحكم أن أعضاءه لم يكن لهم من هم سـوى ابتزازه بأى بأى وسـيلة • ورغم ذلك فلم يكن بامكانه مقاومـة الضغط الأوروبى المتزايد على مصر الذى استشرى بعد الانهيار النهائى لنظام الاحتكار فى عهده • يضـاف الى ذلك أن الأشخاص الذين نالوا حظوته كانوا يحتكرون المزايا لتنفيـذ بعض متطلبـات الصناعية وكانوا يبيعونها لشركات تقوم بتصنيها وبالتالى كانوا يجورون على سكان مصر ويعمدون الى التضييق على سـلطة الوالى حتى يكونوا هم بديلا لها بحيث يحـلون محل الجنس التركى فى مصر (٧٧) • والنتيجة هى أن التجارة لم تكن تمارس على أساس سليم بحـكم أن التجـار كانوا يستثمرون رءوس أموالهم فى سندات على خزانة الحكومة كانت تدر ربحا يتراوح بين ١٥ و ١٨٪ ـ وحتى لا تتأثر سمعة سعيد فانه كان يدفع قيمة السند حين يحل موعده وقد عمد كل الأشـخاص الذين كانت لديهم أشـياء ذات قيمة الى الاستغناء عنهـا حتى يتسنى لهم استثمار هـذه السـندات وان يكن هـذا لم يؤثر على حجم

(٧٦) ١٣٢٢/٧٨ ـ رقما ١٣ و ٢١ اللذان سبقت الاشارة اليهما •

(٧٧) ٢٠/١٤٢ ـ رقم ٢٢ من بروس الى كلارندون بتاريخ ١٨٥٧/٨/١٦ •

الواردات والصادرات التى ازدادت (٧٨) •

وهكذا انفسح المجال لجعل مصر وحدة زراعية كولونيالية فى نطـاق النظام السياسى ـ الاقتصادى العالمى (٧٩) وذلك بعد انهيار خطط محمد على وهو ما نستشف منه أن عدم حصـول مصر على الاستقلال الذاتى كان يمثل احدى العقبات الرئيسية التى اعترضت تطور البلاد الاقتصادى • فقد سبق أن رأينا أن رسوم الصادر والوارد كانت تحددها الاتفاقيات المعقودة بين الحكومة العثمانية والدول العظمى فى حين كان لايمكن فرض أى ضرائب مباشرة على الأجانب دون موافقة حكوماتهم وذلك نتيجة للامتيازات الأجنبية • وكان محمد على قد نشط الزراعة والصناعة والتجارة ودافع عن استقلال مصر الذاتى وأفاد من الخبراء والفنيين الأوروبيين الذين شجعهم على الاستقرار فى مصر ، فى الوقت الذى عرقلت فيه احتكارات الحكومة نشاطات الأجانب فى مصر بحيث أن التوسـع فى استيراد رأس المـال الأجنبى لم يتم الا فى النصف الثانى من القرن التاسـع عشر وذلك فى أعقاب افتتاح قناة السويس وظهور الحاجة الملحة الى تمويل زراعة القطن واعداده للتصدير •

وكان عباس الأول يقاوم كل أشـكال النفوذ الأوروبى

---

(٧٨) ١١٢/١٤٢ من كلكهون الى رسل فى ١٨٦١/١١/١١ •

(٧٩) عيسوى ، المرجع السابق ، ص ١٩ و ص ٢٤ •

ـ واذا ما كان قــد تميز بكرهــه للأجــانب الذين انعزل عن مجتمعاتهم فانما كان يستهدف بذلك التصدى للتغلغل الغربى • أما عصر ســعيد فانه يسجل مرحلة انتقــال فى تاريخ مصر ـ فشخصيته وسياسته ، فى الوقت الذى شهد نمو الرأســمالية والثورة الصناعية فى أوروبا ، كانتا مسئولتين عن الديون وتنفيذ مشروع قناة السويس الذى تحملت الحكومة المصرية معظم تكاليفه وعن الغزو السلمى الأوروبى لمصر • وقد ظهرت نتائج كل هذه التطورات خلال الجيل التالى لعصر سعيد واستشرى فى عصر اسماعيل ووصلت قمتها حين خضعت البلاد للاحتــلال البريطــانى (٨٠) •

---

(٨٠) راجع حول هذه التطورات ودلالاتها كتاب « فى أصــول المسألة المصرية » تأليف صبحى وحيدة (القاهرة ١٩٥٠) .

الموضـــوع الثـــالث

اوراق حككيـــان

لم يجر حتى الآن تقويم أوراق حككيــان (١) التى كان هيوارث دن أول من أشار اليها فى كتابه :

In troduction to th History of Education in Modern Egypt (London, 1939).

وتلقى هذه الأوراق أضــواء جديدة على أوضــاع مصر خلال الفترة الممتدة بين عامى ١٨٤٠ و ١٨٦٣ والتى لم تحظ بالاهتمام الكافى من جانب المؤرخين ، كما تحتوى على سـيرة حككيان الذاتية وانطباعاته الخاصة خلال الفترة التى قضاها فى انجلترا ما بين عامى ١٨١٨ و ١٨٣٠ . وبالامكان مقارنة خواطره بانطباعات رفاعة الطهطاوى عن الفترة التى قضاها فى فرنســا فى الوقت الذى كان فيه حككيان يدرس فى انجلترا . كما تحتوى أوراق حككيان على معلومات ورسوم هامة تتعلق بالتنقيبات الأثرية التى تمت تحت اشراف الجمعيــة الملكية البريطانية ، بأوضاع البلاد الاجتماعية التى لمسها خلال اشتراكه فى هــذه التنقيبات .

وقد ولد يوسف حككيان فى استانبول (حوالى عام ١٨٠٧) فى أسرة أرمنية كاثوليكية . ومنذ طفولته كان والده يحـلم بأن يتلقى ابنه تعليمه فى انجلترا ، وتحققت هــذه الأمنية حين

---

(١) المتحف البريطانى (المخطوطات الاضافية Add. MSS) المخطوطات ٣٧٤٤٨ — ٧١ .

توجه الى مصر وأصبح أحد تراجمة محمد على . وحين قرر محمد على فى عام ١٨١٧ ارسال عدد كبير من أبنائه وموظفيه الى باريس لكى يتلقوا تعليمهم هنـــاك ، انتهز والد حككيـــان الفرصة فطلب من محمد على أن يرسل ابنه ـ الذى كان يقيم مع والدته فى استانبول ـ الى انجلترا . ولبى محمد على هذا الطلب ـ وحين وصل حككيان الى دوفر لم يكن يعرف من اللغات سوى التركية (٢) واعترته الدهشـــة التى عادة ما يتعرض لها شباب الشرق حين يواجهون أوروبا للمرة الأولى . وفى انجلترا كان يشرف عليه صمويل بريجز الذى سبق له العمـــل بمصر حيث كان قنصـــلا عاما لبريطانيا ـ ولمـــا كان حككيان كاثوليكيا فقد تقرر الحاقه بكلية ستونيهرست حيث ظل حتى عام ١٨٢٤ يدرس اللغة الانجليزية الى جانب المناهج السائدة فى ذلك الوقت : اللغتان الفرنسية واللاتينية وغير ذلك ، وبعد أن أتم هـــذه الدراسات وصلته تعليمات (فى ١١ ديسمبر ١٨٢٤) من بوغوص بك يوسفيان (يوسف) وزير التجارة والشـــئون الخارجية فى مصر تتضمن أمرا من محمد على على تقضى بأن يكرس حككيان اهتمامه لدراســـة آلات الغزل والنسيج من الناحيتين النظرية والتطبيقية الى جانب الاطلاع على كيفية بنـــاء الطرق

---

(٢) المخطوطة رقم ٣٧٤٦٢ ، ص ٥٦٦ ، هـــذا رغم أن حككيان يذكر فى سيرته الذاتية أنه قبل أن يبارح استانبول كان ملما باللغتين الارمنية والفرنسية (المخطوطة رقم ٣٧٤٤٨ ، ص ١٦٣) .

والكبارى والقنوات والأرصفة النهرية (٣) ٠

وفى أول مايو ١٨٢٥ شرع فى تنفيذ أوامر محمد على الخاصة بهذه الدراسات ٠ ثم صدرت اليه الأوامر بزيارة مصانع القطن فى جلاسجو بقصد الاطـلاع على أساليب الغزل والنسيج فى اسكتلنده ومانشستر (٤) وهنـاك طفق يجمع المعلومات المفيدة عن عمليات تصنيع القطن ٠

وفى خريف ١٨٣١ عاد حككيان الى مصر بعدأن نسى لغته الأصلية نسيانا تاما مما أدى الى تزويد محمد على له بمترجم يساعـده فى مهامه التى واجه خـلال اضطلاعه بهـا كثيرا من الصعوبات الناتجة عما اكتسبه من مفـاهيم فى انجلترا (٥) ٠ ومهما كان الأمر فقد تم تعيينه مراقبا عاما لمصـانع القطن فى الحوض المرصود والخرنفش وبولاق والمبيضة ووضـع تحت اشرافه عشرون من طلبـة قصر العينى قام بتعليمهم مبـادىء الهندسة والرياضيات والميكانيكا بمساعدة مترجم تقوم الحكومة بدفع راتبه ٠ وفى عام ١٨٣٤ افتتحت مدرسـة الهندسة فى بولاق ثم ألحقت بها فى عام ١٨٣٥ مدرسة المهندسين فى القناطر الخيرية

---

(٣) المخطوطة رقم ٣٧٤٦٣ ، ص ٣١٧ ـ ٣١٩ ٠

(٤) المخطوطة رقم ٣٧٤٦٢ ، ص ٦٥٠ ٠

(٥) نفس المخطوطة ، ص ٥٠ ٠

التى كان بها ثلاثون طالبا (٦) كما ألحقت بها مدرسة المناجم بمصر القديمة (٧) وتم تعيين حككيان مديرا لمدرسة الهندسة الجديدة (٨) مما أتاح له الفرصة ليصبح عضوا بديوان التعليم الذى أنشىء فى عام ١٨٣٦ (٩) • وفى أواخر الثلاثينات عين مديرا لمدرسة العمليات ، كما اشترك فى انشاء « الجمعية المصرية » التى تأسست فى عام ١٨٣٥ وكان من أهدافها تقديم خدمات للمسافرين الأجانب المارين بمصر وكانت لها مكتبة كانت تنعقد فيها اجتماعاتها • وقد تولى أكثر من مرة ادارة الجمعية التى اقتنت عددا كبيرا من الكتب وكانت تهتم بوجه خاص بالمطبوعات المتصلة بالشرق : تاريخه وجغرافيته ودياناته وعاداته ، بل انها كانت تطمح الى أن تستطيع بمرور الزمن أن تنشر كتبا تتصل

---

(٦) احمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى عصر محمد على (القاهرة ١٩٣٨) ص ٣٦٠ – ١ • وراجع ايضا محمد فؤاد شكرى : بناء دولة مصر محمد على (القاهرة ١٩٤٨) ص ٦٤٥ • ويذكر شكرى ان عدد طلبة المدرسة بلغ ٢٢٥ •

(٧) احمد عزت عبد الكريم : نفس المرجع والصفحة •

(٨) كتب محمد على الى مختار بك مدير ديوان المدارس – بصدد مناهج مدرسة الهندسة – ليلفت نظره الى عدم وجوب كون التعليم سطحيا والى انه لم يبعث حككيان ليصبح لوردا فى أوروبا ، بل ليعود الى البلاد ويقوم بتعليم الطلبة النافعين للأمة وللبلاد وأمره بالجدية والحماسة فى تعليمهم حتى لا نضرب بالعصى • (احمد عزت عبد الكريم ، المرجع السابق ، ص ٤٢٥) •

(٩) لفت حككيان نظر الباشا الى ضرورة تعليم البنات • (محمد فؤاد شكرى ، المرجع السابق ، ص ٦٦٦) •

باهتماماتها الخاصة (١٠) • وفيما بين عامى ١٨٤٤ و ١٨٥٠ ترأس ثلاث بعثات كانت تقوم بالبحث عن الفحم فى مختلف صحارى مصر وجبالها • وفى عام ١٨٤٩ عين رئيسا لمجلس الصحة ولو أن مرضا مزمنا أرغمه على التقاعد فى عام ١٨٥١ ، وان يكن قد تلقى تعليمات شفهية من عباس الأول فى مارس من نفس السنة لكى ينفذ باسم حكومته بعض الدراسات الخاصة فى وادى النيل لصالح الجمعية الملكية البريطانية (١١) • ولكنه سعى الى الحصول على الحماية الانجليزية فى مواجهة احتمال تعرضه للعنف ونزوات الطغيان التى لا تقدر العواقب خاصة وأن عددا من الأشخاص من كلا الجنسين اختفوا فجأة دون أن يعرف أحد مصيرهم ، وكان ذلك من وراء مخاوف حككيان خاصة وأنه كان على صلة عائلية بأرتين بك (١٢) الذى تعرض لسخط الوالى (١٣) • الا أن مخاوف حككيان لم تكن تستند الى أساس فواصل تنقيباته مع مستر ليونارد هورنر عضو الجمعية الملكية البريطانية حتى أواخر عام ١٨٥٦ حين أتم تقاريره النهائية

---

(١٠) جمال الدين الشيال : تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على (القاهرة ١٩٥١) ص ٦٤ — ٦٥ • وقد اضمحلت الجمعية فيما بعد ، وتوجد كتبها فى دار الكتب بالقاهرة وذلك تنفيذا لوصية آخر اعضائها : حككيان وثربورن وكيانى بك •

(١١) المخطوطة رقم ٣٧٤٦٣ ، ص ٣١٧ — ٣١٩ •

(١٢) كان حككيان متزوجا من أخت أرتين •

(١٣) المخطوطة رقم ٣٧٤٥٢ ، ص ٤٨ — من حككيان الى بريجز بتاريخ ١٨٥١/٤/٢٩ •

وعيناته ورسوماته وعمليات المسح التى كان يقوم بها • وبالاضافة الى ذلك فانه انشغل فيمـا بين عام ١٨٥٤ ونهـاية عام ١٨٦١ بدراساته الخاصة التى ضمنها كتابا عاديا ــ ولمـا كان كثير من رجال العلم الذين احتك بهم وحادثهم أحيانا حول الموضوع قد شجعوه فانه أبدى رغبته فى نشر الكتاب فى انجلترا وطلب من والى مصر سعيد باشا أن يساعده على مواجهـة نفقات اعداد وطبع مائتى نسخة من هذا المؤلف (١٤) ووافق سعيد على ذلك ودفع خمسمائة جنيـة (١٥) ، وتم نشر الكتـاب فى لندن فى عام ١٨٦٣ فى طبعة خاصة تحت العنوان التالى :

A Treatise on the Chronology of siriodic Monuments

ولم أستطع تحديد وضع حككيان الوظيفى حين تم نشر الكتاب خاصـة وأنه آشار الى كونه « حككيان بك الاستانبولى الموظف السابق بالحكومة المصريـة » • أما أوراقه الخاصـة ويوميـاته ومراسـلاته وملحوظاتـه ورسـومه وغـير ذلك (١٨٢٩ ــ ١٨٧٤) فقد قام ابنه تيتو حككيان آحد أقطـاب الجالية الأرمنية فى الاسكندرية ــ باهدائها فيما بعد الى المتحف البريطـانى (١٦) •

---

(١٤) المخطوطة رقـم ٣٧٤٦٣ ، ص ١٧٨ ــ ٩ (مـذكرة مؤرخـة ٢١ يولية ١٨٦٢ •

(١٥) نفس المخطوطة ، ص ١٨٢ ــ ١٨٣ و ص ١٨٨ ــ ١٨٩ •

(١٦) عمر طوسون : البعثات العلمية فى عهد محمد على ثم فى عهد عباس الأول وسعيد (القاهرة ١٩٣٤) ص ١٠٧ •

تقع اوراق حككيان فى اربعة وعشرين مجلدا وتبت على الوجه التالى :

المجلد الأول :

مفكرات ورسوم (٢٥ ابريل ــ ٨ مايو ١٨٢٩) ــ يوميات فى انجلترا (يوليه ١٨٢٩ ــ يناير ١٨٣٠) ــ سيرة ذاتية كتبت خلال الرحلة الى مصر (يوليه ــ سبتمبر ١٨٣٠) ويوميات الرحلة ــ يوميات فى مصر (٢٩ أغسطس ١٨٤٠ ــ ٢٣ أغسطس ١٨٤١) .

المجلد الثانى :

تكملة اليوميات مع ملحوظات ميدانية .

المجلد الثالث والرابع :

تكملة اليوميات .

المجلد الخامس :

تكملة اليوميات بالاضافة الى سجلات حول التنقيبات الأركيولوجية والجيولوجية .

المجلد السادس :

تكملة اليوميات .

المجلد السابع :

ملحوظات ميدانية ورسومات .

المجلد الثامن :

استعراض التنقيبات التى أجريت فيما بين عامى ١٨٥٢ و ١٨٥٤ •

المجلد التاسع :

يوميات سجلت فى عام ١٨٦٢ •

المجلد العاشر :

رسومات خاصة بالآثار التى جرى التنقيب عنها فى عام ١٨٥٤ بالاضافة الى جداول بمنسوبات النيل وغير ذلك •

المجلد الحادى عشر :

رسومات (بعضها ملون) ومشروعات الآثار والتنقيبات المصرية والقوائم الخاصة بها •

المجلدات الثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر :

مراسلات حككيان •

المجلد السابع عشر :

قوائم خاصة بالمناسيب وأعمال الحفر ومادة أخرى جيولوجية (١٨٥١ ــ ١٩٥٤) •

المجلد الثامن عشر :

مراسلات وأوراق رسمية متفرقة كتبت باللغتين التركية والعربية (١٨٣٦ – ١٨٦٨) .

المجلد التاسع عشر :

أوراق وتقارير رسمية متفرقة ذات صلة بشئون مصر (حوالى عام ١٨٣٨ – ١٨٤٠) وغير ذلك .

الأجزاء العشرون والحادى والعشرون والثانى والعشرون :

مفكرات كتبت حوالى ١٨٦٨ – ١٨٧٢ .

الجزءان الثالث والعشرون والرابع والعشرون :

ثلاثة أبحاث أو مسودات كتاب عن التسلسل الزمنى للأرض أو « نظام التسلسل الزمنى المصرى والانجيلى على ضوء العلاقة النظرية بين الذراع المصرى وبين التغيرات المادية فى المنسوب السطحى فى مصر » .

ولكى تتمكن من تقويم المادة التى تتضمنها أوراق حككيان وأهميتها بالنسبة الى تاريخ مصر الحديث لابد لنا أن نعرض لشخصيته وأفكاره ونظرته ونشاطاته . فهو مهندس تمكن من دخول « الحريم » وكان على صلة بالكثيرين فى مصر وأوروبا . كما أنه اضطلع بعدة مهام فى مختلف نواحى مصر وبالتالى فانه كان على صلة وثيقة بالحياة الاجتماعية فى الصحارى

والأرياف والمدن ، هـذا بالاضافة الى اشتراكه فى مداولات رسمية ، ولهذا فان المناصب الرسمية التى تولاها والتعليم الذى تلقاه قد أضفيا عليه ادراكا وثيقا لأحوال مصر والتقلبات الدولية فى عصره . هـذا الى أن معرفته بعدة لغات وتجاربه الخاصـه قد عمقت أفكاره وأثرت ملحوظاته وجعلت منه رجلا ذا نظرة عالمية خالية من التعصب القومى . ورغم تخصصـه فى العلوم التطبيقية فقد كان يتذوق الآداب (١٧) وينحو منحى انسانيا . فقد أمضى فى انجلترا اثنى عشر عاما شـهد خلالها نمو الثورة الصناعية وظهور مبادىء التجارة الحرة والنزعات الليبراليـة . وهكذا فانه كان يرى أن « التعليم وحرية التجارة من شأنهما أن يجعلا النـاس يلبون دواعى العقل » ويحكمون أنفسـهم بأنفسهم . وقد أفصح عن وجهة النظر هـذه فى مجلس رأسـه عباس الأول وحضره نوبار وآخرون (١٨) . وكان يحبذ اقامـة مؤسسات عامة يستطع فيها الفقير والغنى والعامة والنبلاء ــ بل وأبناء الملك ــ أن يتلقوا نفس التعليم ويتمتعوا بنفس المزايـا التى يتمتع بها أبسط الناس . وقد ذهب الى وجوب أن تحظى

---

(١٧) ذكر فى عام ١٨٤١ أن درويشا فارسيا كان يجىء كل مسـاء الى « مندرته » ويمضى معه سـاعة أو ساعتين يقرأ معه خلالها ويعلق ويتحـادث بالفارسية وأنه بعث يطلب الشاهنامة وبعض كتب التاريخ المنشـورة (المخطوطة ٣٧٤٤٩ ، ص ٥) .

(١٨) المخطوطة رقم ٣٧٤٥٢ ، ص ١٩ .

هذه المؤسسات بعناية خاصة من جانب الحكومة وأن تعتمد (من حيث الصيانة والتعليم والملبس) على ضرائب يجرى تحصيلها من الشعب كله (١٩) • ولما كان متأثرا بأفكار جماعة الفزيوقراط فانه كان يحلم بعالم واحد تربطه المواصلات والتجارة لمصلحة الانسانية جمعاء : « فالزراعة والصناعة هما أهم مستلزمات التجارة • فنحن ننقل منتجات جزء من الأرض الى جزء آخر تتحول فيه الى تلك الأشياء التى يجرى تصديرها وتفيدنا فى تلبية حاجاتنا الملحة أو فى الوفاء بكمالياتنا • فمن الواجب أن تشكل الشعوب أسرة واحدة تتبادل المساعدة ــ فحين يرتبط كل منها بالآخر يمكن تحقيق الهدف الأكبر من الطبيعة بحيث يتسنى بالفعل اجراء الاصلاحات فى كل بقاع الأرض » (٢٠) •

وكان حككيان أميل الى قيام نظام عالمى للتعليم بحيث تتوحد المبادىء الأخلاقية فى شتى أنحاء العالم ولايمكن السماح بأى نظام جديد دون اطلاع البشرية عليه • ولكن أحوال الشرق لم تكن تسمح فى ذلك الوقت بتطبيق مثل هذه الأفكار التقدمية ــ فرغم اعجاب حككيان بحكم محمد على الذى اعتبره حكما مستبدا مستنيرا فانه كان شديد الانتقاد للحكم

(١٩) المخطوطة رقم ٣٧٤٤٨ ، ص ٣٧ •
(٢٠) نفس المخطوطة ، ص ٥٧ •

الشرقى : « فالمغتصبون فى الشرق نادرا ما يمتلكون أراضيهم بصفة وراثية بحكم تنشئة أبنائهم باهتمام أقل مما يحظى به حتى أبناء الأسر القديمة الذين يتمتعون بكرامة السيادة » (٢١) • ومن رأيه أن الدبلوماسية الشرقية تتضمن قدرا من التظاهر والخداع يفوق ما تتضمنه الدبلوماسية الأوروبية ، فلا ينجح شيء نجاحا فعليا •• بالنسبة الى معظم السفراء مثل اهانة الرجل وطرده بطريقة مهينة ، ولا يفوق ذلك سوى خداعه للتوصل الى الهدف • وتاريخ الشرق مليء بمثل هذه الأمثلة منذ عصر كورش • والصعوبة الوحيدة التى تعترض قيام الشخص بعمله على أحسن وجه دون صعوبات هى عدم اطمئنانه أحيانا الى اخلاص رئيسه وبالتالى لا يتسنى التغلب على الشكوك المتبادلة والاعتراض أمر مؤكد كما هو الحال فى الوزارات الأوروبية » (٢٢) •

ومن الطبيعى أن يؤدى هذا الاتجاه الى تنديد حككيان بالطغيان الذى كان يمارسه شيوخ البلد على صغار المزارعين فى القرى (٢٣) • بحيث كان الفلاحون يعمدون الى ترك الزراعة ويفضلون الدخول فى خدمة البدو أو يختبئون فى المدن حيث يتحولون الى خدم أو ما شابه ذلك من أعمال • كما أدى به هذا

(٢١) نفس المخطوطة ، ص ٥٨ .

(٢٢) المخطوطة رقم ٣٧٤٥٢ ، ص ٣٨ بتاريخ ٢٦ مارس ١٨٥١ .

(٢٣) المخطوطة رقم ٣٧٤٤٩ ، ص ٩١ — ٩٢ بتاريخ ١٨٤٣/١/٢٨ .

الى مقت الطغيان الذى تمثل لديه فى عباس الأول بوجه خاص بحيث خشى أن ينكل به مما دعاه الى طلب الحماية الانجليزية وهو ما سبق أن أشرنا اليه • وكان رجل الشارع يشارك حككيان نظرته الى الحكم المطلق السائد فى مصر فى عصره — فحين سئل مكارى عن عباس أجاب بأنه كسول وقاس على الفقراء : « فهو يكلفهم بأعمال شاقة فى الصحارى ويكاد لايدفع لهم من الأجر الا أقل القليل • كما صرح بأن كثيرا من مواطنيه يموتون يوميا أثناء عملهم فى قصور الباشا • وكان الرجل من التعقل بحيث ذهب الى أنه كان من واجب سموه أن ينفق الأموال فى تحسين أحوال مصر (القاهرة) بدلا من القيام بالبناء فى الصحراء ، واستطرد قائلا أنه لو ألغى الوالى السخرة لغضضنا الطرف عن سيئاته العديدة — فمن الظلم والقسوة أن يحرم الآباء من مساعدة الابن الوحيد الذى كانوا على استعداد لافتدائه بألف قرش حتى لا يفقدوا معاونهم فى الأعمال الزراعية » (٢٤) •

وهكذا نجد أن الملحوظات الاجتماعية الواردة فى أوراق حككيان تلقى أضواء على أوضاع مصر السياسية والاجتماعية فى أيامه خاصة وأنه قد تنقل فى أنحاء عدة من البلاد واتصل بأنماط مختلفة من سكانها — فهو يصف أحوال البدو فى عهد عباس الأول على الوجه التالى : « ان عباس باشا يتعمد محاباتهم

(٢٤) المخطوط رقم ٣٧٤٥٢ ، ص ٢٦ بتاريخ ٦ مارس ١٨٥١ •

ويتغاضى عن أعمـال التخريب التى يرتكبونهـا وعن انتهابهم للفلاحين . فمن المعروف أن عامر (أو أمير) الطحاوى قد سرق حصانا ممتازا كان يمتلكه شيخ غنى فى البحيرة وهو يمتطيـه دون أن يعتريه أى خوف . وقد اشتكى الشيخ للحاكم ولكن دون جدوى . وان الخلع التى تمنح باستمرار لشيوخ القبـائل المتوحشة انما هى دليل على أن الوالى الحـالى شديد الاهتمام بكسب ولاء البدو ذوو الطباع الخشـنة الذين يفهمون تماما السبب الكامن وراء دلالات الصـداقة هذه ، ويزيدهم هـذا الضعف جرأة مما يجعلهم يعودون الى حرفتهم القديمة المستندة الى التخريب . ومن ناحية أخرى فان شيوخ الفلاحين سيعودون الى عادتهم الخاصـة بقطع الطريـق . وبامكان الشـيخ أباظـة (Abhassa) فى البحيرة أن يسـتدعى حوالى اثنى عشر ألف رجل مسلح لمساعدته . وهؤلاء المشايخ هى نبلاء البلاد ، ومن ثم فهم لا يبدون استعدادا لأن يزوجوا بناتهم للأتراك أو للسلطان ذاته أو لأعرق بيوتات أوروبا . وهم يعتقدون أن لهم حق السرقة داخل حدود أراضيهم ، ويقومون فى أحسن الأحوال بتحصيل الاتاوات » (٣٥) . ولمـا كان حككيان قد لمس نوعا من التحول الاجتماعى الخـاص بالعلاقة بين المسلمين وغير المسلمين فقد لاحظ أن عداء المسلمين للمسيحيين قد خفت حدته ولو أنه قد

---

(٣٥) المخطوطة رقم ٣٧٤٦٨ ، ص ٤٠ — ٤٢ .

حل محله شعور آخر أكثر قوة وهو الكره والغيرة والخوف من الأوروبيين والجماعات الدينية التى يفترض أنها تتعاطف مع الأوروبيين (٢٦) ٠

وحين يعرض حككيان للشخصيات نجده يصطنع التحليل الذى يأخذ فى عين الاعتبار العوامل الاجتماعية والسيكلوجية، وهكذا يصف عباس الأول بأنه شاب له صفات كان من الممكن أن تفيده هو والبلاد فيما لو تلقى التعليم المناسب ولكن التعليم السيىء الذى تلقاه واحاطته بأشخاص جهلة وأنانيين قد حولاه الى طاغية مجنون (٢٧) ٠ وهو يعرض لبوغوص يوسيفيان الذى قام بخدمة محمد على لأكثر من ثلاثين عاما على الوجه التالى : (٢٨) « كان بوغوص بك رجلا ممتازا فى حياته الخاصة ولم يبزه أحد فى القدرة على انجاز المهام الرسمية وذلك اذا ما وضعنا فى عين الاعتبار أنه كان مرءوسا لطاغية ٠ ومن الممكن اعتباره من أعظم الوزراء الشرقيين لأنه ظل طيلة كل هذه السنوات يتمتع برضى طاغية وبلاط يتصف بالطغيان ٠ وكان سر سياسته هو ألا يعمل بوحى من رغبته الخاصة وبهذا كان لا يجازف بشىء ، فكان لا يدلى برأيه للباشا بصفة شخصية كما كان يعترض على آرائه علنا بأى شكل من الأشكال » ٠

(٢٦) المخطوطة رقم ٣٧٤٥٢ ، ص ١٧ بتاريخ ٢ مارس ١٨٥١ ٠
(٢٧) نفس المخطوطة ، ص ٣٣٤ ٠
(٢٨) المخطوطة رقم ٣٧٤٤٩ ، ص ٢٣٥ بتاريخ رجب ١٢٥٩ هـ ٠

يضاف الى كل ما سبق أن أوراق حككيان تحتوى على رسوم وخرائط ومعلومات خاصة بمساكن مختلف قطاعات سكان مصر وملابسهم وعاداتهم . وأخيرا فلا يجب علينا أن نغض الطرف عن كون حككيان أول موظف فى الادارة المصرية خلال القرن التاسع عشر يحتفظ بيومياته ومراسلاته وأوراقه الخاصة . ولاشك أن تسطيره معظم خواطره باللغة الانجليزية كان من نتائج اقامته فى انجلترا وتلقيه تعليمه بها (٢٩) .

---

(٢٩) يتضح من سيرة حككيان الذاتية التى كتبت فى عام ١٨٢٩ خطأ ابراهيم أبو لغد حين يذكر فى كتابه :

The Arab Rediscovery of Europe (Princeton, N.J., (1963), P. 69

أن رفاعة الطهطاوى كان المبعوث الوحيد الى أوروبا فى عصر محمد على الذى سجل انطباعاته عن السنوات التى أمضاها فى الخارج .

الموضــوع الرابــع

مــذكرات نوبــار باشــا

قليلة هي المذكرات الخاصة التي سطرها من لعبوا أدوارهم في التاريخ العربي الحديث ، اذ ان عادة كتابة المذكرات الخاصة بصفة منتظمة لم تتأصل في تقاليدنا وخصوصا أن قلة نادرة من ساستنا هم الذين يقدرون قيمة مثل هذه المذكرات بالنسبة الى الأجيال الصاعدة ، وأن معظمهم لا يحتفظون بأوراقهم الرسمية ومكاتباتهم بالشكل الذي نلمسه لدى كثير من المسئولين في الدول المتقدمة . ويجدر بنا أن نتساءل عن أسباب هذا القصور : هل هي مرتبطة بنمط الحياة الشرقية الصاخب الذي قد لا يدع للمسئول فرصة لكي يخلو الى نفسه ويسطر خواطره بانتظام ؟ أم هي مرتبطة بعدم الشعور بالأمن واحتمال أن تؤدي المذكرات الخاصة الى متاعب غير منظورة اذا ما تبدلت موازين السلطة ؟ حقيقة أن بعض الشخصيات العامة قد نشروا « مذكراتهم » التي كتبوها من وحي الذاكرة بعد مرور وقت طويل على الأحداث التي عرضوا لها : الا أن مثل هذه « المذكرات » لا تعدو أن تكون ذكريات تلون الأحداث بألوان تبريرية على ضوء التطورات التي جرت وموقف المسئول منها .

هذا الى أن ايقـاع الزمن قد يجعل الذاكرة تخون صاحبهـا فلا يكون دقيقـا عن عرض ما يسجله ـ بالمـذكرات بمعنى الكلمة يجب تسجيلها آنيا على شكل يوميـات منتظمـة قد تطول وقد تقصر كما تستلزم المحافظة على المراسلات الخاصـة التي قد تكشف ما لا تكشفه الأوراق الرسمية • وقد جرت عادة من خلفوا مذكرات خاصة من الساسة الغربيين على الاحتفـاظ بيومياتهم وأوراقهم وتسجيل وصـية بالمكان الذى تحفظ فيه وبالمدة اللازم مرورها حتى يتاح للآخرين الاطلاع عليها ، وهى عادة نصف قرن يكون قد مات خلالها من وردت أسماؤهم فى هـذه المذكرات ، وتكون سرية ما سـجلوه قد انتفت أو كادت ـ ولو أن هذه المدة قد انكمشت شيئا فشيئا نتيجـة لسرعة ايقاع الحياة وتطور وسائل الاعـلام وقيام بعض الحكومات دوريا بنشر مقتبسات من أوراقها الرسمية بين وقت وآخر • بل ان المذكرات الخاصـة لبعض المسئولين المعاصرين قد أضحت وسيلة من وسائل التكسب •

ومذكرات نوبار باشا التى نعرض لها ليست مذكرات بمعنى الكلمة ، بل انها « ذكريات » سطرها فى أواخر حياته خـلال الفترة الممتدة ما بين نوفمبر ١٨٩٠ ومايو ١٨٩٤ [١] • موجهـا اياها الى القارىء العام بل الى أسرته وحدها دون أن يفكر فى

[١] توفى نوبار فى باريس فى ١٢ يناير ١٨٩٩ •

نشرها • ولعل هـذا راجع ضمنيا الى محاولته تبرير مواقفه لأبنائه وأحفاده ، لأن الدور الذى لعبه فى السياسة المصريـة كان مثار جدل وخصوصا أنه كان من أنصار التدخل الأجنبى فى مصر، وأنه تعاون الى حد كبير من سـلطات الاحتلال البريطـانى • وسأقصر تعليقى على « ذكريات » نوبار على ملحوظات أوردها فى مواضعها ثم أعقب عليها فى آخر الأمر ، مفضـلا استهلال عرضنا هـذا بنبذة عن حياته •

ولد نوبار نوباريان فى أزمير فى أسرة أرمنية فى ٤ يناير ١٨٢٥ • وكان والده وكيلا لوالى مصر محمد على باشا فى آزمير أولا ثم فى باريس • وكان الأرمن فى ظل الحكم العثمانى يشكلون طائفة دينية (مللت) لها بطريركها الخـاص المقيم فى استانبول ، والمنتمى الى أعيان الأرمن الذين سيطروا على « الطائفة » فى الوقت الذى كانوا يشـغلون فيه وظائف عليـا فى الحـكومة وخصوصا بعد أن كسرت الدولة شوكة اليونانيين على أثر ثورة اليونان فى العشرينيات من القرن التاسع عشر • وكان التجـار الأرمن فى طليعة من أفادوا من التطور الصناعى والتجارى الجديد الذى أصاب الامبراطورية العثمانية ـ وكان بعضهم يقوم باقراض النقود فى حين أن البعض الآخر كان من الحرفيين والتجـار ، وكانت أغلبيتهم تقطن شرقى الأناضول فى حين أن أكثرهم تعليما وتقدما كانوا يقطنون المدن الكبرى وخصـوصا اسـتانبول

وأزمير ، كما كان كثير من آغنيائهم يبعثون أبناءهم الى أوروبا لتلقى التعليم العلمانى الذى لم يكن متوفرا فى الامبراطورية العثمانيـة حينذاك ، وليلعبوا دورهم فى الوساطة التجارية والدبلوماسية نتيجة لاتقانهم بعض اللغات الأوروبية ـ ومن هؤلاء والد يوسف حكيكيان (٢) الذى كان مترجما لمحمد على باشا وطلب منه أن يرسل ابنه (يوسف) لتلقى تعليمه فى انجلترا • وهكذا تلقى نوبار تعليمه الابتدائى فى جنيف : ثم توجه الى سورين ـ بالقرب من تولوز ـ فى فرنسا حيث تلقى تعليمه بمدرستها الثانوية خلال الفترة الممتدة ما بين عامى ١٨٣٦ و ١٨٤٠ • وفى هذا العام الأخير توفى والده فى مرسيليا مما اضطره الى العوة الى أزمير حيث أمضى بعض الوقت قبل أن يتوجه الى مصر التى تولى فيها خاله بوغوص يوسيفيان لفترة طويلة الاشراف على علاقات محمد على الخارجية ونشاطاته التجارية • وبادر بوغوص الى تقديم ابن أخته الى الوالى فى سراى رأس التين ، ثم أسكنه معه وعينه سكرتيرا خاصا له .
وكان الانطباع الأول الذى تولد لدى نوبار بعد انتقاله من أوروبا الى الشرق هو احساسه بالنقلة من العصر الحديث الى العصور الوسطى الشرقية • ونستشف من مذكراته كم كان يرثى

---

(٢) راجع بحثى عن أوراق حكيكيان فى
P.M. Holt (ed), Social and Political change, in Modern Egypt, (Oxford University press. 1968).

لخاله خاله الذى كان باستمرار يرتدى ملابس « الرعايا » المسيحيين ويعيش فى عزلة تامة ولا يتوجه لمقابلة الباشا الا بعد أن يتلو صلواته الأخيرة بحكم أن الأحداث التى عاصرها والمناظر الدامية التى شاهدها قد أثرت كثيرا فى نفسيته ــ بل انه كاد يفقد حياته نتيجة لاحدى سورات شك الباشا وغضبه . ومع كل هذا فان بوغوص كثيرا ما كان يصارح الباشا برأيه فى الوقت الذى كانت فيه نزوات الحكام وغضبهم تفضى الى الموت.

وفى عام ١٨٤٤ مات بوغوص فقيرا بل مثقلا بالديون ، وشهد جنازته كثير من سكان الاسكندرية المصريين والأجانب . وحين علم محمد على أن دفن بوغوص لم يتم باحتفال رسمى اجتاحته نوبة غضب وأمر باخراج جثة بوغوص من القبر واعادة اجراءات الدفن باحتفال يشهده كبار الموظفين الذين لم يشاءوا فى السابق أن تحاط جنازة ذمى باحتفالات رسمية مما آلم محمد على الذى كان يقدر خدمات بوغوص له طوال أكثر من ثلاثين عاما . حقيقة ان أوامر محمد على بهذا الصدد لم تنفذ بحذافيرها ، الا أن كبار الموظفين المسلمين شهدوا احتفالا رسميا على روح بوغوص فى كنيسة الأرمن وهو ما لم يسبق له مثيل .

وبعد وفاة بوغوص عمل نوبار مترجما لمحمد على الذى منحه ثقته لاتقانه للغتين الفرنسية والتركية والمامه باللغة

الانجليزية ولتقديره للخدمات التى قدمتها له أسرته ، ويذكر نوبار أنه قرأ رسالة غير واضحة الخط كان الدوق دى مارمون قد أرسلها لمحمد على ولم يستطع أحد قراءتها ، مما أدى الى ذيوع شهرته فى حاشية الوالى بصفته متعلما يتقن كثيرا من اللغات . ونحن نعتقد أن نوبار يبالغ فى وصف أهميته بالنسبة الى الوالى ، اذ ان اتساع الحركة التعليمية فى عصر محمد على الذى شهد ايفاد البعثات الى مختلف البلدان الأوروبية وخصوصا فرنسا ، ووفود عدد كبير من الأوروبيين الى مصر ، قد أمد حاشية الوالى بالكثيرين الذين يتقنون اللغات الأجنبية ويمكنهم ادارة مراسلات الباشا . ونحن لم نعثر فى الوثائق البريطانية التى رجعنا اليها بصدد أواخر حكم محمد على والفترة القصيرة التى حكمها ابراهيم قبل وفاة والده على أية اشارة الى الدور الذى كان يلعبه نوبار لشاب فى حاشية هذين الواليين . ولا يأتى نوبار فى مذكراته بجديد حين يسجل أن محمد على قد أفسح المجال لتقدم مصر المادى على النمط الأوروبى باستقدامه الخبراء والفنيين الأوروبيين (من أطباء ومهندسين وضباط بحريين) وتكريمه اياهم بقصد تشجيع رعاياه على أن يكرموهم بدورهم ، خصوصا وأن المسلمين من رعايا الدولة العثمانية برغم تخلفهم ، كانوا لايزالون يحتقرون الذميين ولا يسلمون بتفوقهم عليهم أو مساواتهم بهم وتوليتهم مناصب قيادية فى أجهزة الدولة ، وفى القوات المسلحة . ويثنى

نوبار فى مذكراته على اتجـاه محمد على الى مساواة المسلمين بالمسيحيين واستقدامه الخبراء من آوروبا وتخفيفه حدة الحواجز التى كانت لاتزال تفصـل الشرق عن الغرب ، ويقر ما ذهب اليه معظم من تناولوا حكم محمد على من أنه مصلح عظيم حول مجرى تاريخ مصر الحديث وأقام فيهـا دولة راسخة الأركان بعد آن كان قد تسلمها ولاية عثمانية فقيرة ومتخلفة، بحيث أصبح يشار اليه باعتباره مؤسس مصر الحديثـة • حقيقة أن عهـد محمد على كان شديد الوطأة على شعب مصر الذى ضحى بالكثير فى سبيل اقامة الدولة الحديثة ، وامتثل لتوجيهات الباشا وشدته الا أن عهود الانتقـال ــ بما فى ذلك حكم محمد على ــ قد لاتخلو من شدة مبعثها الرغبة فى اختصار مدى التطور • وهكذا نجد نوبار يطلق على محمد على (ص ٦٩ من المذكرات) صفة « المتبربر العبقرى ــ «Ce barbare de génie» •

ويرثى نوبار لازدياد شكوك محمد على وآوهامه فى أواخر حياته وخصوصا بصـدد ما تخيله من أن ابنـه ابراهيم يتآمر للاستيلاء على الحكم وقد يلجـأ الى الأساليب الشرقية فيدس له السـم ليتخلص منه • وهـذه الشـكوك هى التى جعلت محمد على يستغنى عن خدمـات نوبار ويعهد بها الى ابنـه ربمـا ليراقب اتصـالاته بالقناصـل • وقد اصحطب نوبـار ابراهيم ــ الذى داهمته الأمراض ــ فى أثناء الرحلات التى قام بها الى أوروبا وتوطدت علاقاتهما فى تلك الأثنـاء بحيث بثه

ابراهيم طموحاته فيما لو تولى حكم مصر • وفى باريس شرح نوبار لابراهيم الآثار التى شاهداها بحيث آحرز اعجابه • وبعد أن زارا لندن عادا الى مصر •

وفى خلال رحلة العودة أبدى ابراهيم شدة خوفه من طبيعة اسـتقبال والده له وخشيته هو الآخر من آن يتعرض للموت بالسم • ثم توجه نوبار الى آزمير لقضـاء بعض الوقت فيها ، وحين عاد الى مصر (١٨٤٦) عين فى منصب السكرتير المترجم الثانى لمحمد على ، ثم رافق ابراهيم فى زيارة ثانيـة الى أوروبا ازدادت خلالها وطـأة المرض عليه مما زاد فى شكوكه وعصبيته • أما محمد على فقد كانت الفترات الأخيرة من حياته بمثابة مأساة حقيقية : فقد اختلط عقله وازدادت شكوكه فى ابنه ابراهيم وباتت تمر به فترات من الجنون والخوف الحقيقيين ، كان يجهش خلالها بالبكاء ولا يهدأ الا اذا نقل الى مسكن ابنته نازلى ، وازاء ذلك فكر كبار الموظفين فى اقامة مجلس للوصاية يتولى حكم البـلاد ولكن ابراهيم رفض هـذا الاتجاه وتوجه الى استانبول لكى يضمن تنصيبه واليا • ولكنه لم ينعم بالحكم طويلا نتيجة لتدهور صحته • وكان نوبار يسرى عنه حتى وقت متأخر من الليل بأن يعيد الى مسامعه أخبار معاركه المظفرة • وخلال هـذه الفترة كان عبـاس حلمى ـ حفيـد محمد على وولى العهد طبقـا لمـا نصت عليـه الفرمانات نتيجة لكونه آكبر أفراد الأسرة

سنا ـ يخشى أن يقضى عليه عمه مما جعله يؤثر الابتعاد عن مصر الى الحجاز • واشتدت آلام المرض على ابراهيم ، وفى النهاية توفى بين ذراعى نوبار (١٨٤٨) ، ولم يأسف عليه أحد لشراسته وقسوته • وبعد وفاة ابراهيم بثلاثة شهور لحق به والده • ويخصص نوبار الفصل السادس من مذكراته لرصد أهم اصلاحات محمد على فى مجالات الزراعة والرى وادخال محاصيل جديدة •

وفى وثيقة هامة أرسلها قنصل بريطانيا العام فى مصر الى حكومته فى ٥ أغسطس ١٨٤٩ (٣) نقرأ الفقرات التالية : « ان تعلق كل طبقات مصر باسم محمد على واحترامها له يشكل جنازة أفخم مما كان بامكان حفيده أن يوفره (٤) • فالسكان المتقدمون فى السن يتذكرون الفوضى التى أنقذ هذه البلاد منها ويتكلمون عنها ، فى حين يقارن السكان صغار السن حكمه المتميز بالحيوية بحكومة خلفه التى يجرفها الهوى والتردد • وجميع الطبقات ، سواء من الأتراك أو من العرب يجمعون بصراحة على أن رخاء مصر قد مات مع محمد على أو ـ حسب مصطلحاتهم الشرقية ـ أن أنفاس مصر قد بارحت جسمها :

(٣) F.O. 78/804, No. 46 Murry to Palmerston.

(٤) ابدى عباس كثيرا من العقوق لجده ـ فلم يشترك فى جنازته او يصدر امرا باغلاق الحوانيت والمصالح الحكومية ولم يدع السلك القنصلى بهذه المناسبة •

وفى الحق .. لا يمكننـــا أن ننكر أن محمد على ، برغم كل أخطائه ، كان رجلا عظيما . فحين نحكم على شخصيته لا يمكننا اطــلاقا أن ننسى أنه ، دون أن يتمتع بميزة من نسب أو من ثروة ، قد شق طريقه الى السلطة والشهرة بشجاعته الفذة وبدأ به وذكائه . فحين تولى الحكم كانت مصر مقطعة الأوصــال نتيجة للنزاعات والشيع ، كما كانت تتعرض للسلب والنهب على أيدى عصابات جوالة من المغامرين ، كما كانت ماليتهــا وتجارتهــا مستنزفتين ، وفى كل محافظة كانت الحياة والأملاك تحت رحمــة أصحاب السطوة . كما لا يجب علينا أن نشتد فى انتقاده حين كان يضطر أحيانا ــ بهدف القضــاء على عوامل الشر والفوضى المستشرية لدى شعب لا يعترف بقانون آخر سوى القوة ــ الى اللجوء الى اجراءات تتصف بالقسوة والشــدة . اذ يقر الجميع بأن محمد على ، لو حكمنا عليه بمقياس كونه تركيا ، لم يتصف بالقســوة : اذ ان العقوبات التى نفــذها كانت ــ مع بعض الاستثناءات القليلة ــ لازمة لأمنــه أو للمحافظــة على السلام العام ، وأخشى أن أشارك الكثيرين فى التصريح بأنه ــ مثل معظم من أطلق عليهم لقب « الأكبر » ــ كان مفرطا فى حبه للشهرة والسلطة ، ولو أن مطامحه لم يلوثها الجشع . ورغم شــدة غضبه الا أنه لم يكن يستمر طويلا .

« ومن النادر أن تصل الى مسامع المرء فى آية ولاية من

ولايات الامبراطورية العثمانيــة فقرة تشبه الفقرة التاليــة :
اذا ما سمح لى الله فاننى أتنازل بكل سرور عن عشر ســنوات
من حياتى لأضيفها الى حياة باشانا العجوز ، ولكننى علمت أن
أكثر من شخص قد فاهوا بهذا التصريح خلال مرض محمد على.
وبالاضافة الى ذلك فمن واجبنا ، كأوروبيين ، أن ننصف ذكراه
بأن نتذكر أن المسافر أو الرياضى أو عالم النبــات والحيوان
الانجليزى كان يستطيع خلال عدة سنوات ــ فى الوقت الذى
لم يكن يستطيع المسيحى فيه أن يتجول فى حلب أو دمشق أو فى
أى مدينة خاضعة لحكم السلطان المباشر دون أن يتعرض للأذى
أو الاهانة ــ أن يتجول عزلا من الســلاح فى وادى النيــل
والصحارى المجــاورة له ، وأن يضمن ســلامة شخصه وأملاكه
بالصورة التى يتمتع بها فى حديقة هايدبارك فى وضح النهار » .

●●●

ويتعرض نوبــار فى مذكراتــه لشخصــية عباس الأول
وشكوكه وما رواه الأوروبيون عن هواجسه واستبداده وتنحيته
للأشخاص الذين ارتبطوا بالعهد السابق ، ولكنه مع ذلك يشيد
ببنائه للسكة الحديدية التى وصلت الاسكندرية بالقاهرة وقيض
لها أن تمتد الى السويس فى عهد خلفه سعيد ، كما يشيد باعادته
الأراضى الى الفلاحين الذين أرغموا على تركها . ورغم شــك
عباس فى نوبار لشدة ارتباطه بعمه ابراهيم فانه لم يتردد فى

الافادة من خدماته (٥) واصطحابه الى استانبول حين توجه اليها لتسلم فرمان توليته حسب العادة المقررة . ويذكر نوبار أنه ناقش فى العاصمة العثمانيــة مشروع مد السكة الحديدية الذى عارضته الســلطات التركية على اعتبار أنه سيفصــل مصر عن الدولة العثمانية ويلحقها بانجلترا وأوروبا .

وقد اختلف عباس عن جده وعمه فى سعيه الى هدم النفوذ الأوروبى فى مصر وتوثيقه علاقات البــلاد بالدولة العثمانية .. خصوصا وأنه كان يعتقد أنه اذا ما تحتم عليه الخضــوع لأحد فليكن « للخليفة العثمانى » لا للأوروبيين . كما كان يرى أن الصراع بين السلطان ووالى مصر لن يفيد سوى الأوروبيين ولن يؤدى الا الى الانهيار التام للامبراطورية العثمانية بما فيهــا مصر ، خصوصا وأن مصر لم تكن فى رأيه تتعدى كونها ولاية صغيرة لا امبراطورية كما كان عليــه الحــال فى عهد جــده ، وبالتالى كان يتجه الى أن تتمشى مؤسساتها ونظمها مع حجمها ودخلها ــ ومن ثم سعيه الى قطع دابر المؤامرات السياســية وطرد الطفيليين الذين رأى أنهم امتصــوا دماء مصر فى العهد السابق ، خصوصا وأنه كان يمقت اتجــاه جده الى احاطة نفسه

---

(٥) عينه عباس (يونيو ١٨٥٠) مديرا للادارة الصحية خلفا ليوســف حككيان الذى نفاه الى الصعيد فى نفس الوقت الذى واصــل فيه نوبار شغل منصب المترجم الثانى للوالى .

ببعض الأوروبيين الذين كانوا يقيمون فى مصر أو يفدون اليها باعتبارهم حلقة الوصل بينها وبين العالم الخـارجى . وهكذا اتجه عباس الى العزلة والى احاطة نفســه بأتباعه المخلصـين وحدهم ويبرر ذلك بقوله : « لست تاجرا ولن يفيدنى هؤلاء السادة ـ فاذا ما شغلوا بتجارتهم فلن أطلب منهم ما يتعدى ذلك ، واذا ما اعتدى عليهم أحد فسأوفر لهم حمايتى ، وسأمنحهم مساندة خاصـة اذا ما احتاجوا اليها .. ولا أود ـ كما كان الحال أيام جدى .. ـ أن يكون قصرى بمثابة مقهى يفد اليه النـاس الذين ليس لديهم ما يشغلهم لكى يتجـاذبوا أطراف الحديث » . أما علاقاته بالسلك القنصلى فلم تشبها شائبـة ولكنها لم تصل الى مستوى العلاقة الوثيقة التى بلغتها أيام محمد على ، ومن ثم البرود الذى اتصف به استقباله خصوصا وأن معظم رجال السلك القنصـلى كانوا من التجار . وفى عهده أنشئت ادارة للجوازات فى الاسكندرية لأن الاضطرابات التى عمت الجانب الأوروبى من البحر المتوسط شجعت عددا من الأشرار ومن لا مستقر لهم على أن يفـدوا الى مصر للاقـامة فيها (٦) . ولم تكن علاقة عباس بكبار الموظفين على ما يرام ، كما أبعد عن الخدمة من كان يعتبرهم أنصـارا لفرنسـا التى

(٦) — F.O. 708/804, no. 27 dated 6 May, 1949 from Murray to Palmerston.

ساندت جده ، بل لقد ألغى المؤسسات التى كان يديرها فرنسيون وأجرى تعديلات كثيرة على ادارات الدولة دون أن يكون لديه من الخبرة السياسية أو التعقل ما يجعله يفرق بين الغث والسمين (٧) . ويسجل نوبار أنه طرد من القاهرة والاسكندرية كثيرا من السحرة وضاربى الودع ومن على شاكلتهم ونفاهم الى الصعيد أو الى السودان .

وفى رأى نوبار كان عباس تجسيدا « للسيد العظيم «Le grand Seigneur» أو للأمير الشرقى الحقيقى : فقد كان يعيش منعزلا متفردا ويصدر أوامره التى كان يتوقع أن تكون موضعا للطاعة العمياء ــ وقد صرح لنوبار بما يلى : « بامكانى أن أعمل كل شىء ويشبهنى الجميع فى أنهم يمكنهم عمل كل شىء » .. « أنا وزير ابن وزير وحفيد وزير . ولست تاجرا مثل جدى أو عمى ، واذا ما كان على أن أحمى التجار فلست ملزما بتقليدهم » . ويصف نوبار عباسا بالكرم فى حدود المعقول ، ويضرب مثالا على ذلك أنه دفع ديونه (نوبار) ويعلل ذلك بأنه لم يكن يحب أن يكون أحد حاشيته فى حاجة الى المال ، لأنه فى هذه الحالة يكون تابعا لدائنيه لا لعباس .. ورغم ما يؤكده نوبار وغيره ممن تعرضوا لحكم عباس من أنه

---

(٧) Ibid, no. 59, dated 4 December, 1849.

كان غريب الأطوار (٨) ومثارا لرعب الشعب ، الا أنه يقر بأن المصريين لم يعانوا فى عهده من الضغوط المالية والاقتصادية التى أثقلت كاهلهم فى عهد جده . وقد أغلق عباس المصانع والمدارس المرتبطة بالجيش ، وذلك لادراكه أن شراء المصنوعات من أوروبا مباشرة أرخص ثمنا وأحسن نوعية . كما ألغى احتكارات الدولة (٩) التى فرضها جده بحيث توفرت للفلاح حرية بيع محاصيله للأجانب نقدا ولم يعد مضطرا لدفع الضرائب عينا بعد أن توفرت له النقود .

ويندد نوبار فى مذكراته فى أكثر من موضع بالسخرة ذلك النظام الذى عرفته مصر منذ أقدم العصور للقيام بالخدمات العامة وخصوصا ما يتعلق منها بمقاومة فيضان النيل بتعلية الجسور وتقوية شواطىء النهر واقامة السدود والقناطر والقنوات ، ثم امتد ليشمل كل الأعمال العامة التى تضطلع بها الدولة والحاكم . وكان الفلاح المصرى لا يتقاضى أجرا عن القيام بهذه الأعمال ، ولا يصرف له غذاء أو يكرس اهتمام

---

(٨) يقال انه كان يحتفظ فى قصره بنمر مستأنس كان يخيف به القناصل الأجانب .

(٩) لكى تضعضع بريطانيا الأساس الاقتصادى الذى ارتكز عليه حكم محمد على عقدت اتفاقية تجارية مع الدولة العثمانية (١٨٣٨) نصت على حرية التجارة داخل املاكها . ويخطىء نوبار حين يذهب (ص ٨٢ ــ ٨٣) الى ان هذه المعاهدة قد وقعت فى عام ١٨٣٦ .

بأحواله الصحية ، بل انه كان أحيانا عرضـــة للجلد بالكرباج •
ويربط نوبار (ص ٨٣ ــ ٨٤) بين السخرة والكربــاج وبين
الاستبداد الذى عرفته مصر منذ آقدم العصـــور ويفسر ذلك
بالنظام الزراعى الذى جعل حاكم البلاد يركز السلطة فى يديه
لكى يتسنى له الاشراف على توزيع مياه النيل ومقاومة الفيضان
واقامة نظـــام رى الحياض المشهور • وبطبيعة الحـــال لم يعد
هذا النظام يتمشى مع المبـــادى الانسانيـــة التى عرفهـــا القرن
التاسع عشر ــ فقد ندد به الأحرار من الانجليز بوجه خاص
وجعلوا منه منطلقا لمناصبة نظـــام محمد على العداء ، كما أنه
كان مناقضا لروح الاصلاحات التى شهدتها الدولة العثمانيـــة
فيما عرف باســـم « التنظيمات الخيريـــة » التى كانت تهـــدف
فيما تهدف الى تحديث الدولة وكسب مساندة الدول العظمى
ــ وبريطانيا بوجه خاص ــ لها فى مواجهة أعدائها •

وقد استولى عباس على الاقطاعيات التى وزعها محمد على
على أسرته وحاشيته التى كانت ترتكز على الأتراك والشراكسة ،
مما جعل كل هؤلاء يهاجرون الى استانبول حيث شكلوا حزبا
مناوئا لعباس ــ فطالبه أبناء وأحفاد محمد على بأن يرد اليهم
ميراثهم من أرض ومجوهرات ــ ومن ذلك اقطاعيات محمد على
التى بلغت ٤٠٠٫٠٠٠ فدان ، كما طالبوه بأن يرد اليهم نفقـــات
اصلاح هذه الأراضى بما فى ذلك المبـــانى التى أقيمت عليهـــا

والأشجار التى غرست فيها • وأصر عباس على موقفه وذهب الى أن الأموال التى أنفقها محمد على وأنفقوها هم كانت فى الأصل ملكا للحكومة التى يحق لها أن تستردها •

وواصل نوبار العمل مع عباس باعتباره سكرتيرا مترجما ثم مديرا لادارة التفتيش الصحى • ورغم آن الوالى لم يعينه وزيرا للخارجية ــ اذ ان مصر ، باعتبارها ولاية عثمانية ، لم يكن يحق لها أن تكون لها سياسة خارجية مستقلة فى حين كان يمثلها فى الخارج سفراء الدولة العثمانية ــ الا أنه كان يضطلع بأعمال تتصل بعلاقات الولاية المحدودة بالخارج ، خصوصا وأن الدولة العثمانية حاولت آن تطبق فى مصر الاصلاحات المرتبطة بالتنظيمات الخيرية التى تضمنت وعد السلطان باقامة العدالة فى آملاكه وتحديد كمية الضرائب وتنظيم تحصيلها وتأمين المرء على حياته وماله وعرضه ، كما تضمنت تحديد مدة الخدمة العسكرية • وكان عباس يرى آن تحويل ملفات حالات الاعدام الى استانبول للحكم فيها من شأنه آن يهدد الأمن والنظام فى البلاد على اعتبار آن سرعة تنفيذ الأحكام من شأنها أن تردع المذنبين • لهذا قاوم تطبيق التنظيمات فى مصر الا اذا عدلت بحيث تتمشى مع عادات البلاد وتقاليدها وما جرى به عرف الولاة فيها • وأرسل نوبار الى استانبول للتفاوض مع

الباب العالى بشأن هـذه المسألة (١٠) • وفى العاصمة العثمانية اتصل نوبار بالسفير البريطانى الذى كان يتمتع بنفوذ قوى فى الدوائر العثمانيـة مبعثه قوة شخصيته ودفاع بلاده عن الدولة فى وجه طموحات محمد على ومساندتها لبرنامج الاصلاحات التى تضمنتها التنظيمات الخيرية ، وذلك كى تستطيع الدولة أن تقف على قدميها وتقاوم الضغط الروسى وتوفر حاجزا قويا فى وجه التوسع الروسى صـوب الهند والميـاه الدفيئة (١١) • ونفذ نوبار فى الآستانة مهمته على خير وجه وحصل على مساندة السفير البريطانى لموقف عباس بشأن مسألة (القصاص) التى سـويت لصالحه • ويبدو أن نوبار تناقش فى استانبول مع السـفير البريطـانى حول مشروع الخط الحديدى بين الاسـكندرية والسويس ، وهو المشروع الذى كان قنصل بريطانيا العام فى مصر (مرى) قد عرضـه على الوالى فى بداية حكمه تنفيذا

---

(١٠) قدم التجار فى الاسكندرية والقاهرة ومواطنون آخرون من ذوى الحيثية عريضـة الى القنصل البريطـانى العام سجلوا فيها احتجاجهم على قرار الباب العالى الخـاص بحرمان الوالى من حق تنفيذ حكم الاعدام فى المجرمين الذين أدينوا قانونا وحكم عليهم بالموت . وقد طالبت العريضـة بابقاء هذا الحق فى يد الوالى محافظـة على الامن وناشـدوا القنصل العام أن يلتمس من السفير البريطـانى فى استانبول — سـ — سرالفورد كانبج — أن يسـعى الى تأجيل اتخـاذ قرار بصدد هذه المسألة حتى تبحثها الحكومة البريطانية .
— F.O. 78/916, Encl. copy in no. 4 dated 24 January, 1852, from Murray to Granville

(١١)

لتعليمات حكومته (١٢) . وحين عاد نوبار الى مصر نصح عباس بتنفيــذ المشروع وبين له آنه سيفيد التجــارة والمواصــلات الأوروبية ويساعد على تطوير الادارة المصرية بحيث تحصــل البلاد على عطف الرآى العام الأوروبى مما يساعدها فى نزاعاتها مع الباب العالى . واقتنع عباس بوجهة نظر نوبار وتفاوض فى هذا الشآن مع قنصل بريطــانيا العام ، وآرسل نوبار الى لندن للتفاوض مع المسئولين البريطانيين . ونجحت المفاوضات وبدىء فى مد الخط الحديدى الذى ربط الاسكندرية بالقاهرة فى عهد عباس ثم أكمل فى عهد خلفه سعيد .

ورغم ما تواتر عن كره عباس للأرمن فى آواخر عهده (١٣) ، فانه عهد الى نوبار وأخيه استيفان بتمثيله له فى برلين وفينا ، ولم يمر وقت طويل على رحيل نوبار الى فينا حتى وصله خبر موت عباس . وفى الفصل العاشر من مذكراته نجده يسرد مختلف الروايات التى جرى تداولها بهذا الخصــوص ــ هذا برغم أن الطبيبين الايطاليين اللذين فحصا جثته أرجعا وفاته الى نوبة من

---

(١٢) .. F.O. 78/804, No. 3 from Murray to Palmerston, dated 16 Jan., 1849.

(١٣) — F.O. 78/919, no. 30 Green to Clarendon, dated 19 Vov.., 1853.

الصراع (١٤) • وعلى أى حال فقد أدت وفاة عباس الى الغاء تمثيل مصر فى برلين وفيينا واعفاء نوبار من الخدمة باعتبـاره أحد رجال عباس • ولعل هــذا هو السبب الذى جعله يتصدى للدفاع عن عباس وسياسته ، فيصف عصره بأنه يسجل مرحلة من مراحل تطور مصر ، ويفند وجهات نظر من هاجموه ، مسجلا أن عصره الذى لم يعرف عنه الكثير قد تعرض للنقد الشديد وأنه كان موضعا للتجنى والأحكام الخاطئة ـ فقد ســاده الأمن بالشكل الذى لم تعرفه مصر حتى ذلك الوقت ، كما يمتدح تخفيضه لنفقات الدولة وشــدة حرصـه على مصالح البلاد •

ويمكننا أن نتبين حقيقة حكم عبـاس بمقارنة ما سجله نوبار بما كتبه قنصل بريطانيا على أثر وفاة عباس (١٥) ـ فقد أكد حمق سياســته وتكديسه الأموال فى خزائنـه مما تسبب فى افلاس الدولة ، وسجل أنه كان يبدى ميلا طفوليا الى البناء والمفروشات مما جعله ينفق كثيرا من المـال ، فى الوقت الذى لم يكترث فيه بالادارة العامة وبمرتبات الموظفين ، بل انه وصـل الى حد

(١٤) — F.O. 78/1036, no. 35, Bruce to Clarendon, dated 17 July, 1854.

ويؤكد بروس (فى رسالته رقم ٣٩ المؤرخة ١٣ اغسطس ١٨٥٤) أن عباسا لم يمت مقتولا وأن أطباءه كانوا يتوقعون اما أن تداهمه نوبة الصرع فى أى وقت أو يصاب بالجنون ، واستدلوا على ذلك بقسوته الشديدة فى أواخر عهده وانفلات اعصابه •

(١٥) الرســالة رقم ٣٩ السابقة •

الامتناع عن دفع مرتبات الموظفين والجيش والخدمات العامه ويعزو اتجاهاته الى كونه الوحيد فى أسرة محمد على الذى لم يتلق تعليما أوروبيا أو يلم بلغة أوروبية أو يتوجه الى أوروبا ولو مرة واحدة بحيث لم تكن لديه أية فكرة عن حضـــارتها • ويضيف الى ذلك أن عباس قد تربى على الطريقة التركية حيث عاشر الخدم الذين لقنوه كيف يكره أوروبا •

ورغم انحياز نوبار الى عباس حين قيم عهده ، فانه كان على العكس من ذلك شديد النقد لخلفه سعيد الذى تعرضت مصر فى عهده للغزو والانتهاب على أيدى العناصر الأوروبية التى تدفقت عليها وكل همها الكسب السريع بأى ثمن • ويشـــير نوبار الى الفوضى التى أحدثتها هـــذه العناصر فى بلاط الوالى وفى الادارات الحكومية وفى أوضـــاع المصريين بوجه عام ، ويعزوها الى شخصية الوالى الذى يكرر نوبار فى أكثر من مناسبة أنه كان يفتقر الى احترام الذات وأنه كان يعشق المظاهر ويحب أن يـــكون موضعـــا للاطـــراء ـــ فقـــد اهتم بالجيش وبالاستعراضات العســـكرية وأنفق الأموال بسخاء على شراء ملابس فاخرة للضباط والجنود واقامة المعسكرات التى كانت بعض خيامها من الحرير الخالص •

وكان سعيد قد استدعى نوبار من فينا وعينه رئيسا لمحكمة الاستئناف ثم مديرا لادارة الترانزيت والسكة الحديدية • والى

هنا يكون نوبار قد اكتسب ثقـة أربعـة من الولاة • ويعلق القنصل البريطـانى على تعيين نوبـار فى منصبه الجديد على الوجه التالى (١٦) : « اننى أعتبر اختيار نوبار بك بوجه عام أمرا مرضيا جدا ــ فلما كان قد ولد رعية للباب العـالى فانه يجمع بين ذكاء الأوروبى وتعليمه وبين المعرفة التامة بالأتراك ولغتهم • ولمـا كانوا يعتبرونه واحـدا منهم ، فان ذلك يوفر تغلبا على صعوبه كبيرة ، ولولا ذلك لكان هـذا التعيين مصدرا لغيرة الأتراك الذين اعتقدوا أنهم أرغموا على وضـع أجنبى على رأس واحدة من أهم ادارات الحكومة خصـوصا وأنهم يحظون بقدر كبير من الرعايه • ولدى معرفة كافية بالصعوبات التى تواجه مدير الترانزيت والسكة الحديدية فى مصر بحيث أشعر بشىء من القلق بشأن نجـاح المدير الجديد • وسأسعى باستمرار الى أن أبذل له كل مساندتى الرسمية ــ اذ من سـوء الحظ أنه من المؤكد أن الموظفين الأتراك لا يمكنهم أن يقفوا على أقدامهم فى وجه المؤامرات والضغوط المستمرة التى تواجههم بدون الميزة التى يوفرها التدخل الأجنبى ــ ولدينا مصلحة حيوية فى أن تكون ادارة المواصلات الحديدية مرضية بحيث يكون تدخلنا أمرا مشروعا » •

(١٦) — F.O. 78/1314, no. 92, Green to Clarendon, dated 22 dec., 1857.

وأول ما لاحظه نوبار لدى عودته الى مصر ازدياد أعداد الأوروبيين ودبيب الحيوية فى أبنـاء البـلاد الذين زال عنهم الخوف الذى خيم عليهم فى عهد الوالى السـابق ، بحيث لم يعودوا يخشون التعبير عن آرائهم بحرية ، وبحيث مالوا الى الخروج للنزهة . كما أن نشوب حرب القرم التى اسـتمرت ما بين عامى ١٨٥٣ ، ١٨٥٦ قد تسبب فى انتعاش البـلاد بسبب ارتفاع أسعار الحبوب الى ثلاثة أضعاف ما كانت عليه بحيث لم يعد الحكام يصطنعون القسوة فى تحصيل الضرائب وبحيث ازداد ثراء المـلاك . وقد شجعت الحرب التجـار اليونانيين والمشارقة على التغلغل فى الصعيد خصوصا وأن سعيد قد أكد حرية التجـارة التى شهدها عصر عباس كمـا أكد حرية تملك الأراضى التى بدأت أيضا فى عهد سـلفه . ولكنه كان يضيق بالشئون الادارية ويحيط نفسه بأشخاص عديمى القيمة والشخصية خصوصا وأنه كان يعتبر نفسه رجلا عسكرية لا يحترم الا المسائل المتصلة بالشـئون الحربيـة وحدها ، مما جعل المديرين وحكام الأقاليم يحذون حذوه . كما كان يرحب بثناء المقيمين الأوروبيين فى البلاد عليه ووصفهم له بأنه لبرالى ذو أفكار عالية . ورغم ذلك فان نوبار يسجل أن أمور مصر سارت على ما يرام بدون تدخل السلطة المركزية وأن هـذا يثبت عدم صحـة الفكرة الذاهبة الى ضرورة حكمها بالشدة وبالسخرة والكرباج .

الا أن ازدياد تدفق العناصر الأوروبية على البـــلاد قد أثار مشاكل لا حصر لها كانت ناتجة عن الامتيازات الأجنبيـــة القديمة التى منحتها الدولة العثمانية للأجانب المقيمين فى أراضيها منذ عصر السلطان سليمان القانونى (فى القرن السادس عشر). فطبقا لهذه الامتيازات كان الأجنبى لا يحاكم الا فى القنصلية التابع لها ولا تنطبق عليه القوانين المحليـــة المستقاة من الشريعة الاسلامية ، كما كان مسكنه لا يفتش ولا يتعرض للقبض عليـــه الا باذن من قنصليته ، مما ساعد على التهريب والاجرام والتستر على المجرمين المحليين والضغط على الحكومة المصرية وابتزازها بالتهديد والوعيد والحصـــول على تعويضات وهمية على أيدى القناصل الذين كان معظمهم من التجار عديمى الذمة والشرف . ويصف قنصـــل بريطانيا العام هؤلاء القناصـــل على الوجـــه التالى : (١٧) « ان القناصل العموميين الذين يقبضـــون مرتبات هم التابعون لفرنســـا والنمســـا وبروسيا واليونـــان وأسبانيا والولايات المتحدة وسردينيا وانجلترا وروسيا . أما القناصـــل العموميون الذين لا يقبضون مرتبات ويعملون بالتجـــارة فهم قناصـــل هولندة وبلجيكا وتسكانيا ونابولى . ومعظم هؤلاء السادة ليسوا حتى من مواطنى البلدان التى يمثلونها (ومن

---

(١٧) — F.O. 78/1222, no. 13, from Bruce to Clarendon, dated 4 April, 1856.

ذلك أن قنصل نابولى العام مشرقى عادى أمكنه أن يحصل ثروة) فى حين أن بعضهم قد اشتروا تعيينهم مقابل دفع مبلغ من المال - والكل قد سعوا الى الحصول على مناصبهم لا من أجل مراكزها ، بل من أجل الفرص التى توفرها لاستغلال المشروعات الحكومية • وهم لم يتلقوا أى تعليم يؤهلهم للمهام القانونية التي يطلب منهم الاضطلاع بها ، ومن الطبيعى أن يسعوا الى اقامة علاقات طيبة بالحكومة المحلية وأن يستغلوا لمصلحتهم الخاصة ما يوفره لهم منصب القنصل العام من سهولة الاتصال بالوالى » •

وتتضمن مذكرات نوبار نماذج عدة للتعويضات الوهمية المبالغ فيها التى أرغمت الحكومة المصرية على دفعها نتيجة للارهاب الذى فرضته بعض العناصر الأوروبية ، متحالفة مع القناصل ، على سعيد الذى اتصف بالتجبر مع المصريين والضعف أمام الأجانب • وهكذا كانت الامتيازات الأجنبية فى عهده بمثابة رأس الحربة لذلك الغزو الخاطف لمصر بحكم أن الأجانب عمدوا الى اغراء الحكومة المصرية ، بصفتها المنتج الأكبر والوحيد فى مجتمع لم تعبد أرضه بعد للاستغلال الصناعى والتجارى • وبمرور الزمن لم يعد الأمر خاصا بقناصل يتكسبون أو يتحكمون ، بل انه ارتبط بأوضاع اقتصادية

واجتماعيـــة تتسرب من الغرب الى المجتمـــع الزراعى المصرى وتتخذ فيه مكانها وتفرض عليه قوانينها ٠

ومن نتائج ضعف سعيد مع الأجانب منحه امتياز قنـــاة السويس لصديق صباه فردنان دلسبس دون أن يحتاط ضـــد ما تضمنه الامتياز من افتيات على البلاد وحكومتها ٠ فقد تعهد سعد لدلسبس بالتنازل لشركة قناة الســـويس عن جميع الأراضى اللازمة لحفر القناة الملحة وبأن يحفر قناة للمياه العذبة من النيل الى منطقة القنـــاة وأن تتنازل الحـــكومة كذلك عن الأراضى اللازمة لها ، وهى مساحات شاسعة أخذت دون مقابل ٠ كمـــا تعهد بوضـــع العدد الكافى من الفلاحين تحت تصرف الشركة لتشغلهم بمعرفتها وتحت ادارتها فى أى نوع تريده من الأعمال والأشغال العامة (١٨) ، وأعفيت واردات الشركة من دفع الرسوم الجمركية المستحقة عليها ٠ وأثبت نوبار آنه ضـــد كل عمليـــات الابتزاز هـــذه ، فقد تنبه الى مساوىء التدخل الأجنبى وحاول أن يتصـــدى له ٠ فبعد تعيينه مديرا للسكة الحديدية حـــاول آن يصلح أوضاعها المضطربة وتصدى للاضراب الذى قـــام به الميكانيكيون الأوروبيون واستبدل بهم ميكانيكيين مصريين ،

---

(١٨) كانت الحكومة تسوق للشركة للعمل فى كل شهر حوالى عشرين ألف عامل ، وقدر ان مثل هـــذا العدد من العمـــال كانوا يساقون فى نفس الوقت فى الطريق من بلادهم الى منطقة العمل ومثلهم يجمعون فى بلادهم تأهبا للرحيل ، فيكون المجموع حوالى ٦٠ ألف عامل كل شهر ٠

وذلك رغم احتجاجات القناصل ومخاوف سعيد كما خلص الادارة من التدخل الأجنبى وقلل من اللجوء الى السخرة فى أعمالها • وحين اضطر سعيد الى الاقتراض نتيجة لاسرافه حاول بنك الكونتوار دسكونت Comptoir d'Escompte الفرنسى أن يكون ضمان القرض على شكل اشراف على مالية مصر • الا أن نوبار رفض تنفيذ طلب سعيد الخاص بكتابة خطاب بهذا الصدد • وحين ازدادت اجراءات الابتزاز من جانب الأوروبيين لأموال مصر والمصريين على شكل تعويضات ، اقترح تشكيل لجنة تحقيق أوروبية لحسم الخلاف ، وتم تشكيل اللجنة بالفعل ولو أنها لم تنجز الكثير بسبب تحيز أعضائها •

وفى عام ١٨٦٢ اصطحبه سعيد الى باريس ولندن • وفى العاصمة البريطانية تباحث مع لورد بالمرستون حول قناة السويس ، كما ناقش فكرة انشاء محاكم مختلطة (١٩) تقضى على فوضى القضاء القنصلى ويشترك فيها قضاة مصريون

---

(١٩) حاول قنصل بريطانيا العام أن يقنع عباس الاول بانشاء محاكم مختلطة .

F.O. 78/804, private letter from Murray to Palmerston, dated 6 April, 1849.

ويحتوى ملف وزارة الخارجية البريطانية ٧٨/٨٤٠ على كثير من الوثائق التي يشتم منها سعي بريطانيا ، فى كل من القاهرة واستانبول ، الى اقامة مثل هذا النوع من المحاكم .

وأجانب فى حسم القضايا المدنية والجنائية الخاصة بالأجانب .
وكان نوبار مقتنعا بأن استقلال مصر لم يكن محصورا فى هذا الامتياز أو ذاك الممكن الحصول عليه من الحكومة العثمانية ، بل فى زيادة قوة مصر بتحسين ادارتها وهو أمر لا يتسنى تحقيقه ما دام الى جانب الحكومة المصرية سبع عشرة قنصلية ينتمى اليها ١٥٠٠٠٠ أوروبى وتتمتع كل منها بسلطة تضاهى سلطة حاكم مصر ماديا وأدبيا وتعرقلها فى كثير من الأمور . وكان خير علاج فى رأيه هو جمع المحاكم والسلطات القضائية العديدة فى مكان واحد يخضع له الجميع على السواء دون تمييز أو استثناء . ومن ناحية أخرى كان نوبار مقتنعا بأن خير نظام للحكم فى الشرق هو الحكم المطلق بشرط أن يخضع الحاكم لسلطة القانون المستند الى دعامة أخرى مستقلة عن الحاكم وأقوى منه وذلك بفرض عنصر أوروبى على القضاء المصرى بحيث لا يخاطر الحاكم بتحديه خوفا من الدول الأوروبية (٢٠) . وفى طريق العودة الى مصر ناقش نوبار مع السفير البريطانى فى الآستانة ـ سير هنرى بلور ـ موضوع قناة السويس . وكانت بريطانيا منذ البداية تعارض المشروع وضربت على الوتر الحساس حين لفتت نظر الباب العالى الى

---

(٢٠) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، مصر والمسألة المصرية من ١٨٧٦ الى ١٨٨٢ ، ص ٢٠ .

خطورة انشاء هـــذا الطريق المـــائى الذى قد يؤثر على نظام الدفاع عن مصر بحيث يتوقف ارتباطها بالدولة العثمانيـــة على حسن نيات الوالى الذى قد يفيد من التسهيلات المـــادية التى يوفرها له حفر قناة السويس فيخلع ولاءه للباب العالى ويعلن استقلاله مدفوعا الى ذلك بأطماعه الشخصية أو بتحريض أى جهة أخرى • كما وجهت نظر الساسة الأتراك الى أن سعيد قد أرفق بعقد الامتياز الأول خطابا أقر فيه أن عقد الامتيـــاز ذاته يجب أن ينال موافقة الباب العالى (٢١) • ورغم ذلك فقد كان نفوذ دلسبس ، المستند الى تعضيد الحكومة الفرنسية ، يجرف كل شيء أمامه خصوصا وأنه كان يباشر نفوذا شخصيا قويا على الوالى الذى لم يعبأ بمعارضة بريطانيـــا بحيث ان مياه البحر المتوسط ، حين وفاته ، كانت قد جرت حتى بحيرة التمساح • وسيسعى نوبار فى عهد الخديو اسماعيل الى التصـــدى للشروط المجحفة التى تضمنها امتياز القناة دون أن يقضى على المشروع برمتـــه •

●●●

أما القسم الرابع من المذكرات الذى يشغل أكثر من نصف حيزها ، فهو يتناول عهد الخديو اسماعيل (١٨٦٣ — ١٨٧٩) ويمكن اعتباره أهم أقسام مذكرات نوبار • فقد تقلب نوبار فى

---

(٢١) احمد عبد الرحيم مصطفى : علاقات مصر بتركيا فى عهد الخديو اسماعيل ، ص ٢١ — ٢٢ •

عهد هـذا الحاكم فى عدة مناصب هامة فرض طابعه عليهـا واتخذ فيها عدة قرارات هامة واستطاع اقناع اسماعيل بالموافقة عليها واختلف معه بصـددها مما أدى الى اعفائه من منصـبه عدة مرات ليعود اسماعيل الى تعيينه من جديد لشدة حاجته اليه، وقد شغل نوبار فى عهد اسـماعيل الحقائب التاليـة : وزارة التجـارة ووزارة الأشـغال العامة ووزارة الخارجية ورئاسـة مجلس الوزراء ورئاسـة أول وزارة « مسـئولة » • وكانت المناصب التى تولاها نوبار فى عصر اسماعيل تتصل من قريب أو من بعيد بمسائل ذات صفة سياسة ، واستطاع هو أن يفرض طابعـه عليها مستعينا فى ذلك بذكائه الفطرى ونشـاطه الجم واستعداده الدائم المتعلم واتقانه لعدة لغات • وأيا كان المنصب الذى شغله فانه كان يتمسك بمبادىء أساسية ترتبط بمصلحـة الشعب المصرى سـواء أكان يتولى منصبا رسميا أم لا ، بل وفى أثناء وجوده فى المنفى • ومصـدر هذه المبادىء جميعا هو مفهوم العدالة الذى تمسك به تمسكا شديدا : فهو يتصـدى للاستبداد وقسوة الضرائب والأساليب التعسفية التى اتصفت بها الادارة المصرية التى لم يحكمها قانون ، كمـا يتصـدى للامتيازات الأجنبية والسخرة ، ونحن نجده يعبر فى مذكراته عن حبه الصادق لمصر ، وهو ما نلمسه فى أقواله التى منها : « ان الاقامـة فى أوروبا شـاقة بصـورة أو بأخرى على الشرقى ،

أيا كانت الراحة التى ينعم بها المرء فى أثنائها . ففيها لا يستطيع أن يحيا ويؤكد ذاته . ويمكنني أن أقول انني أمضيت فى الخارج اثنتى عشرة سنة من مجموع سنوات حكم اسماعيل البالغة خمسة عشر عاما (٢٢) ، قمت خلالها بمهمات ورحلات وقضيت فيها فترات فى المنفى . وكنت باستمرار أشعر بالأسى لبعدى عن مصر وأحن اليها ـ ولدى عودتى اليها كان يغمرنى السرور الشديد » (٢٣) .

وفى عام ١٨٦٧ كتب ما يلى الى زوجته التى كانت فى نيس : « فسرت لك فى خطابى السابق سبب تأخير رحيلى الى استانبول .. اننى أتتمى الى مصر ولن نستطيع ، أنت وأنا ، أن نعيش فى مكان آخر .. وذلك رغم أن الحياة فيها مستحيلة طالما يعيش فيها الأوروبيون دون أن تحكمهم قيود أو قانون وطالما لا توجد لدينا محاكم . اننى أتألم لأننى لا أطيق الظلم . ونحن بحاجة الى محاكم تحمينا من الأوروبيين ومن الوالى ، فمثل هذه المحاكم توفر لنا العيش الآمن والكريم . اننا بحاجة الى محاكم تجعل مصر هى مصر . وان اقامة العدالة هى التى ستسير بنا رأسا الى الاستقلال . وحين عبر لى الوالى عن طموحه الى الاستقلال كان ردى الصريح عليه هو أن أول ما يجب

---

(٢٢) بلغ حكم اسماعيل ستة عشر لا خمسة عشر عاما .
(٢٣) مذكرات نوبار ، ص ٢٦٦ .

علينا عمله هو أن نكون رجالا وأن نرفع النير الذى يفرضه علينا الأوروبيون » .

لهذا بذل نوبار فى عصر اسماعيل جهودا متواصلة (يفصل الكلام عنها فى مذكراته) لاقامة المحاكم المختلطة . فقد أجرى مفاوضات مع الدول السبع عشرة المتمتعة بالامتيازات الأجنبية. وعلى حين أن انجلترا وألمانيا والنمسا كانت فى صف الاصلاح القضائى فقد عارضته كل من فرنسا والدولة العثمانية . ففرنسا كانت تعتبر نفسها الراعى التاريخى للامتيازات الأجنبية ، فى حين لم ترحب دوائر استانبول بالمفاوضات المباشرة بين مصر والدول وذلك على اعتبار أن الاصلاح المرغوب فيه يتضمن خرقا للشريعة الاسلامية التى تأنف أن يحاكم المسلم على يد ذمى ، ولأن تطبيق قوانين أجنبية فى احدى الولايات قد يؤدى الى سيطرة الأجانب عليها . وتوجت جهود نوبار بالنجاح فى آخر الأمر وافتتحت المحاكم المختلطة فى أوائل عام ١٨٧٦ . وكان العنصر الأساسى فيها من الأوروبيين الذين كانت تعينهم حكوماتهم . أما القوانين المطبقة فيها فقد اختلفت اختلافا أساسيا عن أحكام الشريعة الاسلامية التى كانت من الممكن الرجوع اليها . وعلى حين لم يسمح باستعمال اللغة العربية فيها فقد كانت اللغات السارية فيها هى الفرنسية والانجليزية والايطالية . حقيقة ان نوبار قد سعى بحسن نية الى تنظيم القضاء القنصلى

الا أن قوانين المحاكم الجديدة لم تكن معروفة لدى الفلاح العادى مما جعلهـا وسيلة لابتزاز الفلاحين على أيدى المرابين الأجانب • وفى علاقاتها بالحكومة خولت النظر فى كل الحالات التى تمس فيها الاجراءات الادارية حقوق الأجانب ، كمـا أنها بحكم وجوب افادتها بكل القوانين العقارية الجديدة ادعت لنفسها ضرورة الموافقة على كل قانون يمس نظـام الضرائب • وأهم من هـذا أنها عرضت اسماعيل وكل أفراد أسرته لأحكامها فى كل ما يمس مصالح الأجانب مما أدى الى تصـويب ضربة شديدة الى ما كان يتمتع به ولاة مصر من حكم مطلق ـ وقد يكون هذا هو الهدف الرئيسى لنوبار الذى كتب لأحد أصـدقائه يوم توقيع الاتفاقية الخاصة بانشاء المحاكم المختلطة : « اليوم وضع أول لغم تحت سلطة اسماعيل وأظن أن هـذا اللغم سينفجر يوما ما » (٢٤) • حقيقـة أن المحـاكم الجديدة نظمت القضاء القنصلى ولكنها لم تلبث أن ووجهت بالنقد فيما بعد لأنهـا نصبت قضاة أجانب للحكم فى المسائل التى تهم المصريين ولأن انشاءها هى والمحاكم الأهليـة قد أدى الى تراجع أحـكام الشريعة الاسلامية •

الا أن كثيرا من المصريين والأجانب رحبوا بالاصـلاح

---

(٢٤) Sabry L'Empire Egyptien sous Ismail, P. 318.
مذكورا فى كتابى مصر والمسألة المصرية ، ص ٢٢ •

القضائى بحيث افتتح فى اليوم التالى لوفاة نوبار اكتتاب لاقامة تمثال له فى الاسكندرية التى قامت فيها محـــكمة الاستئناف للقضاء المختلط . وقد ساهم فى هذا الاكتتاب كثير من سكان مصر من أهال وأجانب ، بل لقد ساهم فيه عدد من فقراء القرى والفلاحين الذين تبرعوا بقروشهم القليلة لاحياء ذكرى « أبو الفـلاح » الذى دافع عنهم وخلصهم من الظـلم الذى كانوا يرزحون تحته .

كما بذل نوبار جهودا متواصلة من أجل تقليص الامتيازات التى حصلت عليها شركة قناة السويس . ففى استانبول عول على الاعتماد على انجلترا من أجـل القضـاء على امتيازات الشركة ، وعلى فرنسا للتغلب على محـاولة كل من انجلترا والباب العالى فرض السيادة العثمانية المباشرة على مصر [٢٥] . وفى باريس شن نوبار حملة صحفية على الشركة وتوصـل مع دلسبس الى اتفـاق وافق فيه هـذا الأخير على الغاء السخرة واعادة الأراضى التى نص عليها الامتياز الى الحكومة المصرية . وفى النهاية أمكن الغاء السخرة واسترداد معظم الأراضى لكن بعد أن تقاضت الشركة فى نظير ذلك تعويضا من الحـكومة المصرية هو الذى مكنها من مواصلة العمل الى آن انتهى حفر

(٢٥) راجع تفاصيل مفاوضات نوبار بهذا الخصوص فى :
G. Douin, Histoire du Règne du Khedive Ismail, tomes I et II.

القناة ووصل البحرين المتوسط والأحمر . كما تفاوض نوبار في عاصمة الدولة العثمانيـة حول توسيع استقلال مصر الذاتي مما أدى في عام ١٨٦٦ الى تعديل نظام وراثة العرش في مصر بحيث يكون في أكبر أبناء الوالي الذي حصـل في عام ١٨٦٧ على لقب خديو الذي ميزه عن سائر الولاة العثمانيين وعلى حق عقد المعاهدات مع الدول الأجنبية بشأن التجـارة والترانزيت وبوليس الأجـانب وحق سن القوانين التي تمس الأوضـاع الداخلية لمصر وحق عقد القروض وزيادة الجيش والأسطول ، وبذلك حصل اسماعيل على حرية في العمل استغلها لسوء الحظ في الاقتراض والدخول في علاقات مستقلة مع الدول الأجنبيـة فيما يتعلق بتسوية الديون . وأخـيرا آكد فرمان ١٨٧٣ كل المزايـا التي منحتهـا الدولة العثمانيـة لمصر وحكامهـا منذ عام ١٨٤١ . وقد أعجب الصدر الأعظم العثماني محمد أمين عالي باشا ببراعة نوبار في التفاوض فعرض عليـه آن يعينـه وزيرا للأشغال العامة في استانبول . الا أن اسماعيل رفض هذا العرض كما رفضـه نوبار ذاته بحـكم آن استانبول ليست مصر وأن الحكم المطلق السائد في البلدين يسهل التصدي له في مصر عنه في الدولة العثمانية وأن تقاليد أسرة نوبار كانت مرتبطة بمصر : «فالانسان لا يتخلى عن بلده كما يتخلى عن زوج أحذية بال .. واذا كان الوالي لا يرحب بي فبامـكاني آن آكون في بـلدي

شخصا عاديا أنعم باستقلالى ولكننى لن أكون على الاطلاق موظفا فى الباب العالى » (٢٦) •

وبعد آن ازداد سوء أوضاع مصر المالية وبدا تخبط اسماعيل اخذت علاقاته « بوزير خارجيته » تزداد سوءا يوما بعد يوم ، خصوصا وآن اسماعيل كثيرا ما كان يتصرف فى الأمور على هواه بحيث ان نوبار كان يرى أن مناقشته لا تعنى دراسة مسألة ما وايضاحها بل جعل محدثه يشير عليه بعمل ما يسعى هو فى الواقع الى عمله وآن يتخذ القرار الذى يرغب هو فى الواقع فى اتخاذه (٢٧) • ففى عام ١٨٧١ أصدر اسماعيل قانونا غريبا أطلق عليه اسم قانون المقابلة نص على اعفاء كل من يدفع ضريبة الأرض لست سنوات مقدما من نصف الضريبة الى الأبد • وأقبل كثير من الملاك على دفع المقابلة واضطر بعضهم الى الاستدانة لهذا السبب • وعلى حين آن المقابلة كانت اختيارية فى البداية الا أنها لم تلبث آن أصبحت اجبارية•وقدرت الأموال التى تم تحصيلها بهذا الشكل بنحو ١٥ مليون جنيه • وقد انتقد نوبار هذا القانون انتقاده لازدياد الضرائب وقسوة الاجراءات المتبعة فى تحصيلها ، كما انتقد السخرة واثقال كاهل الفلاحين بالرسوم والضرائب • وحين فكر اسماعيل فى فرض

---

(٢٦) مذكرات نوبار ، ص ٣٩١ •
(٢٧) مذكرات نوبار ، ص ٤٢١ •

رسوم جمركية داخلية على البضـائع المنقولة من اقليم الى آخر ، بشرط أن يدفعها المصريون وحدهم ، أصر نوبار على تطبيقها على الأجانب ، وأمكنه أن يفرض رأيه رغم معارضـة القناصل . واستنكر نوبار استحواذ اسماعيل وأسرته على ٢٠٠٠٠٠ر١ فدان من مجموع الأراضى الصالحـة للزراعة والبالغة ٢٠٠٠٠٠ر٤ الى ٤٠٠٠٠٠ر٤ فدان ، واقتنع بأن لا صـلاح لمصر الا اذا تنازل اسماعيل عن هذه الأراضى واكتفى بمخصصات سنوية . كما اعترض على اتجاه الخديو الى فرض الاحتكار على تجـارة السودان مما أدى الى اعفائه من الخدمة (مايو ١٨٧٤) وان يكن اسماعيل قد اضطر من جديد الى اعادته الى وزارة الخارجية. ويستنكر نوبار فيما سجله عن عامى ١٨٧٤ ـ ١٨٧٥ القسـوة المتبعة فى تحصيل الضرائب مما أرغم الفلاحين على بيع محاصيلهم قبل جنيها فى الوقت الذى ازداد فيه الوضع سوءا . وفى أوائل عام ١٨٧٦ كان ولفرد بلنت فى زيارة الى مصر وقد أثاره ما شاهده فيها بحيث قدم لنا الصـورة المثيرة التالية (٢٨) : « كان من النادر حينئذ أن ترى شخصا فى الحقول وعلى رأسـه عمامة أو يرتدى أكثر من قميص على ظهره . بل ان ارتداء العباءة كان مقصورا على عدد قليل من مشايخ البلد . وأينما ذهبنـا

(٢٨) — Secret History of the English Occupation of Egypt, PP. 11 — 12.

مذكورا فى كتابى مصر والمسألة المصرية ، ص ٤٣ .

تكررت القصة • وكانت مدن الأقاليم تمتلىء فى أيام الأسواق بالنسوة اللاتى يبعن الى المرابين اليونانيين ملابسهن وحليهن الفضية وسبب ذلك ضغط جباة الضرائب على القرية وكرابيجهم فى أيديهم » • كما اعترض نوبار على ما انتواه اسماعيل من ارسال حملة لغزو دارفور ، خصوصا وأنه كانت تجول بخاطره أطماع توسعية دفعته الى محاولة غزو الحبشة مما عرضه لهزيمتين فادحتين فى الوقت الذى فشلت فيه مساعيه الى السيطرة على زنجبار •

وازاء كل هذا التخبط من جانب الخديو نجد نوبار يبدأ فى لعب دور مثير للجدل سأحاول فيما يلى أن أقيمه تقييما موضوعيا مستندا فى ذلك الى دراستى الوثائقية الخاصة بهذه الفترة والتى أوردتها فى كتابى « مصر والمسألة المصرية » الآنف الذكر وبمذكرات نوبار ذاته • فحين اشتدت أزمة مصر المالية وازداد وضع البلاد الاقتصادى سوءا طلب اسماعيل من بريطانيا أن تعيره أحد موظفيها لترتيب شئونه المالية فى الوقت الذى كان ينوى فيه اعلان افلاسه وهو ما عارضه نوبار والدول التى كان رعاياها دائنين لمصر ، ومن ثم لجوء اسماعيل الى بيع أسهم مصر فى قناة السويس للحكومة البريطانية • ثم أرسلت بريطانيا الى مصر بعثة يرأسها ستيفن كيف عضو مجلس العموم البريطانى وكبير القائمين على شئون المدفوعات — وكانت

مهمة هذه البعثة اجراء تحقيق مبدئى يمكن الحكومة البريطانية من أن تقرر هل توافق أم لا توافق على طلب اسماعيل الخاص بتعيين موظف انجليزى مستشارا ماليا للخزانة المصرية • وعارض اسماعيل منذ البداية اجراء التحقيق الذى كانت تهدف اليه الحكومة البريطانية ، كما عارضه نوبار الذى يشير فى مذكراته الى أن « كل الدم المصرى ثار فى عروقه » حين تبين هدف البعثة وصرح لكيف بقوله : « فى ظل هذه الظروف كان من الأفضل ألا تأتى الى مصر على الاطلاق » • وانتهز نوبار المنافسات الدولية التى أحاطت ببعثة كيف لكى يتوصل الى افشالها • حقيقة انه كان لا يزال يميل الى أن يتعاون العنصر الأوروبى مع المصريين بحيث اقترح على كيف ايفاد انجليزى له من السعة والكفاءة ما يؤهله لشغل وزارة المالية المصرية مع توفير الضمانات الكافية لاستدامة نفوذه بحكم وضعه ذاته وخوف اسماعيل من استقالته ، وان يكن حتى ذلك الوقت يعارض أى تدخل فى شئون مصر أو فرض الرقابة على ادارتها • ورغم ما يشير اليه فى مذكراته من أن معارضته للبعثة كانت نابعة عن حبه لمصر فقد توفر لنا من الأدلة ما يشير الى أنه كان يطمح بسبب أصله الأرمنى ، الى أن يعينه الباب العالى واليا على أرضروم التى كان ثمة مشروع بمنحها استقلالا ذاتيا ووضعا شبيها بوضع لبنان • ولما كان يلقى تأييدا من جانب سفيرى

روسيا وفرنسا فى استانبول فانه كان يطمع فى استغلال نشاطه ضد بعثة كيف للتقرب من كلا السفيرين والباب العالى الذى رفض مساعى السفير الروسى بهذا الخصوص ، وان يكن نوبار اكتسب الى جانبه قناصل روسيا وألمانيا والنمسا وايطاليا الذين نصحوا اسماعيل بتوخى التعقل وعدم الأستسلام للنفوذ البريطانى وحده ، وهو ما نصحه به الباب العالى والسفير الروسى فى استانبول .

حينئذ كانت قد ازدادت شكوك اسماعيل فى نوبار الذى انتقد سياسته الاقتصادية والسخرة وجباية الضرائب مقدما والانفاق الباهظ على الجيش . وفى يناير ١٨٧٦ تم تعيين محمد شريف باشا وزيرا للخارجية بدلا من نوبار الذى احتفظ بوزارة التجارة . وقدم نوبار استقالته وصرح لقنصل فرنسا العام بأنه بدأ يشعر بفقده لثقة الخديو الذى لم يصغ سمعا لنصائحه وأحاط نفسه بمستشارى سوء لا يحسنون العواقب ويسيرون بالبلاد صوب الخراب . أما اسماعيل فقد اتهم نوبار بأنه كان من وراء ارسال بعثة كيف وبعثة مماثلة أرسلتها فرنسا لمواجهة المخططات البريطانية ، وبحب السلطة وادعاء اللبرالية برغم ميله الى الطغيان وطلب منه مبارحة مصر . الا أن نوبار يبين فى مذكراته (ص ٤٦٧) أنه كان يسعى الى مقاومة التدخل

الأجنبى (٢٦) • وأنه نصح اسماعيل بأن يبادر الى اقامة مراقبة مصريه تجنبه الرقابة التى كانت الدول توشك أن تفرضها عليه مما تسبب فى طرده من مصر • وعلى أى حال فقد ازداد التدخل الأجنبى فى شئن مصر فأنشىء صندوق الدين الذى مثلت فيه الدول العظمى ووجه أول ضربة شديدة الى استبداد حاكم مصر، ثم تلا ذلك فرض رقابة انجليزية فرنسية على مالية البلاد • أما نوبار فقد طفق يتجول فى العواصم الأوروبية شارحا وجهات نظره فى كل من لندن وباريس وبرلين — ولما كانت المسألة الشرقية قد احتدمت فى ذلك الوقت نتيجة لثورة بلغاريا ضد الحكم العثمانى ثم الحرب الروسية — التركية التى تلت ذلك ، فقد جرى اقتراح بتعيينه واليا على بلغاريا التى طرح اقتراح بمنحها استقلالا ذاتيا على نمط الوضع المعمول به فى لبنان ، ولو أن الحرب الروسية — التركية أدت الى فشل المشروع •

وازاء احتدام الموقف لدولى فى أعقاب تصدى بريطانيا للتوسع لروسى فى البلقان وتهديدها بالحرب ورواج الاشاعات الخاصة بقرب احتلالها لمصر ، فان نوبار بدأ تحركا فى اتجاه المصالح البريطانية • فمنذ بعثة كيف كان قد اقتنع بأن جسامة

---

(٢٩) سبق ان أشرنا الى ان نوبار كان يحبذ نوعا من التدخل الاجنبى الذى من شأنه شل سلطة الخديو ، وهو ما لم يكن الشعب المصرى يستطيع القيام به فى هذه المرحلة .

ديون مصر لابد أن تفضى الى التدخل الأجنبى . ولو أنه كان شديد الرغبة فى مقاومته اذا ما كان فى صالح الدائنين وحدهم . ولما كان هـذا التدخل يعرض استقلال مصر للخطر ان لم يقض عليه تماما ، فقد رأى وجوب عدم اغفال مصالح الشعب المصرى — وخير وسيلة لذلك هى اما الاحتلال البريطانى أو فرض الحماية البريطانية على مصر . وفى برلين طرح وجهات نظره هذه على المستشار الألمانى أوتوفون بزمارك الذى رحب بها بطبيعة الحال باعتبارها بديلا لاصطدام بريطانيا بروسيا بسبب البوغازين . ثم توجه الى لندن لمتابعة هدفه وان لم يجد آذانا مصغية لدى الدوائر المسئولة ، خصوصا وأن رئيس الوزراء البريطانى اليهودى الأصل بنيامين دزرائيلى لم يكن يجد فى احتلال بلاده لمصر ضمانا ضد الأطماع الروسية ، بل كان يعتبر استانبول — لا قناة السويس — المفتاح الحقيقى لطريق الهند . ولكن نوبار وجد ترحيبا باتجاهاته من جانب العسكريين الانجليز ومن وزارات الخارجية والهند والخزانة ، كما اتصل بالصحفى ادوارد دايسى رئيس تحرير مجلة القرن التاسع عشر « The Nineteenth Cntury and after » وأطلعه على مذكراته (٣٠) (التى يخطىء ابنه بوغوص فى تذييله للكتاب

---

(٣٠) راجع :
Dicey, The Story of the Khedivate, PP. 166 — 8.
مذكورا فى كتابى مصر والمسألة المصرية ، ص ٤٨ .

الذى نحن بصدده حين يذكر أن والده بدأ كتابتها بعد تقاعده) وكشف له حقيقة أوضاع مصر • ونشر دايسى مقالات عرض فيها وجهات نظره بالشكل الذى يعد الرأى العام البريطانى ان لم يكن لاحتلال مصر فلفرض الحماية البريطانية عليها •

ثم انتقل نوبار الى باريس حيث قام باتصالات وثيقة بكل من يهمهم أمر ديون مصر وعرض عليهم رأيه الخاص بعدم اجراء تخفيض فى فائدة الديون قبل اتخاذ الخطوات اللازمة لتقدير قيمتها ومدى مقدرة مصر على الدفع واجراء تحقيق حول الأسباب التى أدت الى ارتباك اسماعيل المالى •

ثم تشكلت لجنة التحقيق العليا التى تألفت من مندوب انجليزى وآخر فرنسى بالاضافة الى أعضاء لجنة صندوق الدين • وكان الهدف الضمنى من التحقيق هو محاكمة الخديو والتأكد من قدرة مصر على الاستمرار فى دفع نسبة الأرباح السارية على الديون واستبدالها بنسبة أخرى اذا ما عجزت عن الدفع • ومن الطبيعى أن يعترض اسماعيل على نشاط اللجنة التى أبدت ازاءه روح التشفى وتتبع شئونه الشخصية فشكا الى قنصل بريطانيا العام من أن التحريات التى تقوم بها عنه وعن أصول الأراضى التى استحوذ عليها تتضمن التشكيك فى نزاهته • ويبدو أن مساعى نوبار فى لندن وباريس قد مهدت لتعيينه رئيسا للوزراء خصوصا وأنه كان يبذل النصح للحكومتين

الفرنسية والبريطـانية فيما يتعلق بالتحقيق ، وصرح لدايسي فيما بعد بأن وزيرى خارجية الدولتين نصحاه ، بعد أن يعود الى القاهرة ، ببذل كل جهده لتقليص مساحة أراضى الخديو الى أقصى حد . ولم يكن نوبار بحاجة الى مثل هذه النصيحة ــ اذ انه كان يجزم بأن ضياع الأسرة الحاكمة فى مصر كانت المصـدر الأساسى لشقاء البلاد وبأن اعادتها الى الدولة كانت حجر الأساس بالنسـبة الى أى اصـلاح مرتقب . وحين تم الاتصـال به لتبين شروطه بخصـوص تشكيل الوزارة طلب أن يتلقى دعوة صريحة من اسماعيل الذى صرح بأن هدفه من استدعاء نوبار هو وضع حد للشـكوك الشائعة عن تآمره . وقبل أن يعود الى مصر حاول أن يحصل على ضمانات من برلين ولندن وباريس وصرح لدايسى بأنه حصـل من وزير الخارجيـة البريطانيـة (روبرت ماركيز سولسبرى) على ضمـان ضد احتمـال اقالة وزارته فحواه أنه سيتلقى المساندة الفعالة من جانب الحـكومة البريطـانية .

وفى ١٥ أغسطس ١٨٧٨ عاد نوبار الى مصر بعد أن أصدرت لجنة التحقيق تقريرها المبدئى الذى أوصى بتنازل الخديو عن الحكم المطلق وتسليم أراضيه للدولة وقبوله مرتبا سنويا واجراء بعض الاصلاحات فى الادارة المـالية . ووافق نوبار على تقرير اللجنة وصرح بأنه سيقوم ، بعد تلقى الدعوة لتأليف الوزارة ،

باختيار شخص انجليزى وزيرا للمالية بشرط أن يكون فى يده مطلق السلطة فى العزل والتعيين ، كما سيختار شخصا فرنسيا ليتولى منصبا أقل أهمية ويعين أحسن العناصر المصرية فى بقية المناصب بحيث يفرض سلطة الوزارة على الخديو • ثم حاول أن يقنع اسماعيل بقبول تقرير اللجنة بحذافيره ، ولما لم يصب فى مسعاه هذا نجاحا هدد بالرحيل عن مصر وترك المسألة فى أيدى الدول الكبرى فيما لو لم يتم قبول التقرير • وتعرض اسماعيل لضغوط شديدة لكى يتنازل عن أراضيه ويتخلى عن الحكم المطلق (٣١) • وأخيرا استسلم مرغما وقبل تقرير لجنة التحقيق دون ابداء أى تحفظ وكلف نوبار بتأليف الوزارة مقرا فى خطابه اليه بهذا الصدد مبدأ المسئولية الوزارية بمعنى أن يحكم عن طريق مجلس وزرائه وبالاشتراك معه • وتقرر تعيين انجليزى (رفرز ولسون) وزيرا للمالية ، وفرنسى (دى بلنيير) وزيرا للأشغال العامة •

ولكن اسماعيل ، الذى لم يقبل وزارة نوبار — التى عرفت باسم الوزارة الأوروبية — الا مرغما ظل يتلمس الفرص التى قد تتيح له استرداد سلطته المطلقة ، خصوصا وأنه كان من المعروف عنه أنه لا يحترم وعوده • ولأسباب عدة كان النظام

---

(٣١) اشار نوبار فى مذكراته (ص ٤٧٧) الى ان سلطة اسماعيل كانت تفوق سلطه لاما التبت •

الجديد مقضيا عليه بالفشل • فتوفير الانسجام بين مختلف العناصر التى تضمها الحكومة والتوفيق بين وجهات النظر المتضاربة والمصالح المتعارضة وشفاء الأحقاد المتنافرة ودفع الوزارة الى العمل بروح الجماعة ــ كل هذا كان يتطلب مهارة فائقة وقدرا كبيرا من الحنكة السياسية • ولما كانت هذه التجربة تمارس فى بلد اسلامى كان من اللازم أن يمثل العنصر الوطنى فى الوزارة مشاعر السكان ووجهات نظرهم وميولهم الدينية تمثيلا كافيا • ولما كانت مصر حتى ذلك الوقت لم تعرف سوى نظام الحكم المطلق كان من الواجب أن يتعاون رئيس الدولة مع الوزارة حتى يتسنى لها الاضطلاع بالسلطة • الا أن نوبار وولسون لم يحاولا اخفاء مقتهما الشخصى لاسماعيل ، بل بذلا كل ما فى وسعهما لتجريده من كل سلطة وتحويله الى مجرد حاكم اسمى ، فى الوقت الذى كان فيه اسماعيل لايزال يتمتع بنفوذ قوى على الموظفين الوطنيين وكان بيده نجاح النظام الجديد أو فشله ، خصوصا وأن نوبار لم يحظ بعطف الشعب أو بثقته (بعكس ما ردده فى أكثر من موضع فى مذكراته) : فقد كان المصريون يعتبرونه أداة لفرض الحماية البريطانية على البلاد : هذا بالاضافة الى كونه أرمنيا ذميا ، كانت طبقة الموظفين المصريين تجزم بأنه أثرى على حساب المصريين باعتباره عميلا للرأسماليين الأوروبيين ، كما اعتبره

الفلاحون الروح المحركة لانشاء المحاكم المختلطة التى أسلمتهم لشراهة المرابين اليونانيين . وعلى حين أن نوبار لم يتقن اللغة العربيـة كان الوزيران الأجنبيان يجهـلان لغة البـلاد وعاداتها وتقاليدها مما أدى الى صعوبة فرض سلطة الوزارة على المرءوسين وجعلهم ينفذون خططها . لهذا كله أثارت الوزارة سخطا واسع النطاق استغله اسماعيل فى الأخذ بثأره فى أقرب وقت . لهذا انتهز فرصـة المظاهرة التى قام بها الضباط المسرحون الذين لم يقبضوا رواتبهم طوال عشرين شهرا وآهانوا خلالها ولسون ونوبار اللذين تصـادف مرورهما على كوبرى قصر النيل وطالب باستقالة وزارة نوبار الذى اتهمـه بسلب سلطته وضعضعة مركزه . وحين سئل نوبار عما اذا كان بامكانه المحافظـة على الأمن العام أجاب بالنفى وقدم استقالته . وبرغم أن بريطـانيا وفرنسا حاولتا احتفاظ نوبار بمنصب وزارى دون أن يتولى رئاسة مجلس الوزراء ، الا أن اسـماعيل رفض اضطلاعه بأية مسئولية وزارية وطلب منه أن يغادر مصر ، فتوجه الى أوروبا حيث تابع اتصالاته بالدوائر الانجليزية والفرنسية التى بدأت تفكر جديا فى خلع اسـماعيل ولو استلزم الأمر ارسـال حملة عسـكرية الى مصر لارغامه على الرضـوخ لرغبـات الدولتين الغربيتين . ويذكر نوبار أنه هو الذى عرض على سفير بريطانيا فى باريس ــ لورد ليونز ــ أن يقنع دولته بحث اسماعيل على

التنازل عن العرش بدلا من آن تتصل الدولتان بالباب العالى لتطلبا منه خلع اسماعيل • وأخيرا اتفقت الحكومتان الغربيتان على نصح اسماعيل بالتنازل عن العرش لابنه توفيق على أن يخصص له راتب سنوى اذا ما وافق على اقتراحهما ، واشترطتا أن يكون مفهوما أنهما ستضطران الى الاتصال بالسلطان مباشرة للعمل على خلعه ، وفى هذه الحالة لن يحصل على الراتب السنوى أو يكون فى مقدورة ضمان المحافظة على النظام القائم لوراثة العرش لمصلحة ابنه توفيق • وأخيرا أصدر السلطان فرمانا ينص على خلع اسماعيل خشية آن تخلعه فرنسا وبريطانيا وتوفرا بذلك سابقة تتيح لهما خلع اى وال عثمان لا يتمشى مع رغباتهما • ثم أصرت فرنسا وبريطانيا على آن يبارح اسماعيل مصر فغادرها فى أواخر يونية ١٨٧٩ • وتأهب نوبار للعودة الى مصر واسترجاع سلطته ، وأذاع من منفاه آنه سيتولى رئاسة الوزارة • ولكن الوالى الجديد ــ محمد توفيق بن اسماعيل ــ أبدى رغبته فى آن يبقى نوبار خارج مصر • ولما كان قنصل فرنسا العام فى مصر حينئذ (تريكو) يشك فى نوبار ويعتبره أداة فى يد بريطانيا وألمانيا لوضع مصر تحت الحماية البريطانية، فانه ساند مساعى توفيق • ويعزو نوبار من جانبه موقف تريكو منه الى أن كان قد طلب منه مبلغا من المال لم يمكنه تدبيره • ولا يستكمل نوبار مذكراته الى ما بعد خلع اسماعيل ،

برغم توليه رئاسة الوزارة فى عهد توفيق (١٨٨٤ ــ ١٨٨٨) وفى عهد خلفه عباس الثانى (١٨٩٤ ــ ١٨٩٩) ولا يقدم لذلك تفسيرا معقولا .

●●●

ويذيل نوبار مذكراته بملحوظات يذكر فيها أنه كتبها فى الفترة الممتدة ما بين نوفمبر ١٨٩٠ ومايو ١٨٩٤ بهدف تقديمها لأسرته وحدها دون أن يفكر فى نشرها . وفى هذا التذييل نجده يفسر مواقفه التى صادفنا جوانب منها فى السياق السابق ، فيؤكد ايمانه بالعدالة التى يلمح الى أنها قد تحققت فى نهاية الأمر فى الوقت الذى أنهى فيه مذكراته وكان لايزال فيه مشغولا بمستقبل مصر الذى لاحظ أنه يسير صوب الاستقلال والاعتماد على النفس والمحافظة على مصالح الآخرين الذين يهتمون بمصر بحكم موقعها الجغرافى وبحكم أن وضعها يرتبط ارتباطا وثيقا بما عرف باسم « المسألة الشرقية » . ورغم أنه لم يستطع التنبؤ بما سيكون عليه هذا المستقبل الا أنه أبدى تفاؤلا مبعثه ايمانه بالشعب المصرى الذى ــ فى رأيه ــ يشبه الطفل فى مرحه ولطفه ، ولو أنه فى بعض الأحيان يشبه الطفل أيضا حين يتعمد الازعاج . فرغم خضوع هذا الشعب عبر القرون للغزاة والطغاة الذين استغلوه وأساءوا اليه الا أنهم لم يؤثروا فيه ولم يسبروا أعماقه التى صمدت للأحداث ولم تتزحزح . وطالما

تحققت العدالة لهذا الشعب الذى اطرح العبودية ، فان المستقبل — كما رآه نوبار — كان يبشر بآمال كبار . والغريب أن مفهوم العدالة هــذا لم يتحقق الا فى ظل الاستعمار البريطــانى الذى رأينا أن نوبار لم يتورع عن التمهيد له باعتباره وسيلة للضرب على أيدى الحكام من أسرة محمد على الذين لم يقيموا وزنا للقيم الانسانية واعتبروا الشعب المصرى — كما اعتبره الحكام الأجانب الآخرون — أداة للاثراء وتحقيق الأطماع . وتقييمنا لدور نوبار فى هــذا المضمار يختلف باختــلاف نظرتنــا الى الأشخاص والأشياء والقيم . فنحن ننفر من السيطرة الخارجية ونؤمن بالاستقلال وتقرير المصير ، ولكننا لا نتردد فى أن نجزم بأن أوضــاع الشعب المصرى بعد عام ١٨٨٢ كانت أحسن حالا مما كانت عليه تحت حكم كل من محمد على وعباس وســعيد واسماعيل . وقد يقول قائل ان نوبار من الأشخاص الذين يطلق عليهم عادة اسم « أعوان الاستعمار » ، ولكننا لا يمكننا أن نغمط الرجل حقه ، فقد لعب دورا — أيا كان حكمنا عليه — فى زعزعة الحكم المطلق الذى عرفته مصر منذ أقدم العصور .

●●●

وقبل أن ننهى عرضنا هــذا لابد أن نشير الى الملحوظات التى سطرها بوغوص بن نوبار فى عام ١٩٢٣ . فهو يشير الى المراحل التى مر بها اعداد مذكرات أبيه التى لا تكتمل صورتها

الا بقراءة الرسائل التى بعث بها نوبار الى زوجته ، وهى رسائل يبلغ عددها أكثر من ١٥٠٠ رسالة تتضمن شرحا لأفكاره وأعماله ومشاهداته وللأحداث التى شارك فيها . وفى هـذه الرسائل يشرح نوبار الأسباب التى جعلته لايستكمل مذكراته ، اذ ضعفت حماسته منذ أن فقدت مصر استقلالها فى أعقاب خلع الخديو اسماعيل ، وبدا له أن تاريخها قد أصبح أقل اثاره عما كان عليه من قبل ، وذلك رغم اشتراكه فى الحيـاة العامة وكونه من العاملين على الغاء السخرة فى عام ١٨٩٠ . فهل مرجع هـذا أن نمط الحياة فى مصر فى ظل الاحتلال البريطـانى كان مخالفا لمـا كان عليه من قبل ، وأن هـذا الاحتلال قد حجم دور نوبار كما حجم أدوار آخرين ممن لعبوا دورهم على ساحة السياسة المصريـة ؟ .

لقد حث بعض الأصدقاء نوبار على نشر هذه المذكرات ، بل لقد بدأ صديقه ادوارد دايسى ترجمتها الى اللغة الانجليزية ، ولكنه لم يوافق على النشر مكتفيا بأن أبدى لزوجته رغبته فى نشر ما يتعلق منها بعصر محمد على وعباس وسعيد مقدرا صعوبة نشر ما يتعلق بعصر اسماعيل الذى عمل نوبار مع ابنه توفيق وحفيده عباس . وبعد وفاة نوبار فى عام ١٨٩٩ ظلت هـذه الصعوبة قائمة بحكم أن أبناء وأحفاد اسماعيل ظلوا يتعاقبون على حكم البلاد ، وأن الملكين فؤاد وفاروق اعترضا على نشرها .

وقد تجددت رغبة أسرة نوبار فى نشرها بعد سقوط النظـام الملكى فى مصر عـام ١٩٥٢ ، ولو أنهم رأوا أن الوقت غـير مناسب للانضمام الى جوقة نقاد « العهد البائد » ، وان سمحوا لبعض الباحثين بالاطلاع عليها • وأخيرا قام مريت بطرس غالى على نشرها فى عام ١٩٨٣ دون أن يضيف اليها أو يحذف منهـا شـيئا •

أما رسائل نوبار الى زوجته التى كان يفترق عنها كثيرا نتيجة للمهام التى كان يقوم بها الى الخارج ولأن صحتها لم تكن تساعدها على البقاء فى مصر خلال فصل الصيف (٣٢) فانها لم تنشر بعد • وقد بذل بوغوص نوبار جهدا كبيرا فى قراءة هذه الرسائل ونقل منها الصفحات التى تهم الأسرة أو تتصل بالأحداث السياسية التى اشترك فيها والده • وكان وجه الصعوبة فيما قام به بوغوص أن نوبـار لم يسـجل التواريخ الا نادرا • ولمس بوغوص أن والده لم يستعمل رسائله الى زوجتـه فى كتابـة مذكراته ، فحاول اضافتها اليها ولو أنه وجد أن حجم الرسـائل يبلغ ضعف حجم المذكرات ، مما جعله يؤجل نشرها ، ثم بحث من مؤرخ متخصص فى تاريخ المسألة الشرقية ممن تعرفوا على والده لكى يعهد اليه بكتابـة سـيرته ، ووقع اختيـاره على

---

(٣٢) تغطى هذه المراسلات الفترة الممتدة بين زواجهما فى عام ١٨٥٠ وبين ١٨٩٥ الذى تقاعد فيه نوبار •

سبر فالنتين شيرول المدير السياسى السـابق لجريـدة التايمز اللندنية الذى كان قد زار مصر مرارا وتوثقت علاقتـه بنوبار الذى أطلعه على انجازاته ومفاوضاته والمعارك التى خاضها من أجل الاصلاح القضـائى • وبدأ شيرول العمل وأودع المذكرات معلومات لم تنشر وضعها بوغوص تحت تصرفه ، ولكن يبدو أنه لم يتابع جهده فى هذا المضمار •

ويشير بوغوص الى أن مذكرات والده الذى تجنب أن يجعل منها سيرة ذاتية ، مكتفيا بشرح الأحـداث التى شارك فيها والتعليق عليها ، لا تخلو من أوجه نقص ، خصوصا وأن والده سطرها من الذاكرة دون أن يضمنها أية تواريخ أو يراعى الترتيب الزمنى للأحداث فى سياقها الصحيح ، خصوصا وأن والده لم يحتفظ بيوميات أو بنسخ من الوثائق التى كتبهـا ، مما جعله يستعين فى تحقيق المذكرات بمراسلات والده الخاصة وبما خلفه من أوراق تضم أعدادا كبيرة من الوثائق (خطابات رسمية وخاصة ، برقيات ، ملاحظات ، ومفكرات) ذات الأهمية التاريخية • ولم يكن هدف بوغوص كتابة سيرة والده حتى لا يتهم بالتحيز ، وهو يسجل أن مهمته لم تتعد جمع المذكرات وترتيبها ، وأن العمل الذى اضطلع به لن يكتمل الا اذا وضعت تحت تصرفه المذكرات الموجودة فى مصر • وهـذه المهمة متروكة

لباحث يتصدى لتقويم دور نوبار تقويما متكاملا خصوصا وأن بالإمكان الآن الاطـلاع على الوثائق الأصليـة المودعة بدور المحفوظات الفرنسية والبريطانيـة ، وحبذا لو أمكن استكمال ترتيب الأرشيفات المصرية (٣٣) والتركية حتى تقوم بدورها فى دعم البحث التاريخى) (٣٤) •



(٣٣) اطلعت ـ فى سجلات الوثائق المصرية ـ على مجموعة من الوثائق الفرنسية التى تضم كثيرا من مكاتبات نوبار فى عصر اسماعيل فى ملفات تحت عنوان «Egypte/Politique» كما اطلعت على بعض مكاتباته التركيـة المترجمـة الى اللغة العربية المودعة فى ملفات دفاتر المعية ـ دفاتر عابدين ـ ملخصـات محافظ المعية .

(٣٤) صـدر كتـاب باللغـة الفرنسية فى عام ١٨٨٥ يقيم دور نوبار وعنوانه كالآتى :

Alexandre Holynski, Nubar pacha devant l'Histoire.

ولم تتبين طبيعة العلاقـة بين نوبار وبين هولينسكى الذى عمد الى قاع عن مواقف نوبار السياسية •

20th of July 1830.

Began on board the Rose. in Plymouth Sound.

I dried up my tears and followed him, but
we had not gone ten paces when an elderly
Armenian, with "cavuk", "kunuk" and yellow
slippers came up to my good conductor, kicked
him, swore, made much noise and took me
away from him. This benevolent redeemer
took me to a cook's and gave me meat
to eat and afterwards led me across the
water to Galata up to my house. I found
the whole family in the greatest alarm
thinking I had been lost. My father immediately
laid me on my back and administered to
the soles of my feet some dozen heavy
blows with the "masha".

To the best of my recollection it was in
the summer of 1816 that my family removed
from Beyoglu to Serapia, a delightful place
in the country some four miles from the Metropolis.
A large painted cart fitted up with cushions
and covered in with an awning was sufficient
to hold all the household. This machine
was drawn by two oxen at a slow pace,
the driver on foot guiding the beasts
by prodding them with a sharp pointed
stick. We carried bread vegetables and
made dishes in the cart to regale ourselves
on the way. My father sat outside smoking
his pipe whilst my mother aunt and
sister muffled up in veils and loose garments
peeped through the curtains to see the country
and look at the passengers. By and by

My stay with the Abbé did not turn out fruitless, for, besides teaching me how to write the European letters, I learnt to count up to a thousand, and to read words in an Italian dictionary without understanding their meaning. About this time used to accompany my father to Stamboul to a certain little room where he sat surrounded with papers writing much and sighing deeply. I did not like the ordeal of sitting in one corner with my legs under me and to listen to his hurried scribbling in Frank characters - but managed to slip away from his presence and lay down near a pump in an open place to see the Italian ships. One day I ventured to follow a company of these praetorian bands - farther than the my knowledge of the topography of the town extended - and in vain I tried to find out my father's study or cell. I began to be frightened and running about the tiny narrow streets came to a place where a poor man was hung up by the neck - a crowd of people were standing round it reading a large ticket which was attached to the wretch's breast. As I never had seen such a sight before, I began to cry aloud, stretching hands, and saying "I am [illegible] [illegible] [illegible] to my father." A ragged young man came up to me, gave me a new para and said he was a particular friend of my father and if I came to his house that night to eat "[illegible]" he would take me to Bey Oghlou in the morning.

then the mill will lose".

March 8th A party was formed of Messrs Secord, Berry, Johnston & myself to go and see Mr Laird's dockyard at Greenock. The steamer took us down in 3 hours, and up again to the Broomielaw in 6.

March 22nd Wrote to my Mother in Constantinople, in Italian. Sent a paper I had written on Steam Navigation to Mr Mayer in Alexandria. Took a part in scheming with Dr Bell & Mr Johnston to get the Viceroy of Egypt elected an Hon. Mem. of the Royal Asiatic Society. There was a [illegible] at the University.

March 23. Wrote to the President of [illegible] College for a copy of the regulations. Mr Pattie the Librarian visited me.

March 24th Visited Dr [illegible] of [illegible] in Glasgow 160 000 [illegible] whisky, 10 000 [illegible] [illegible] N 2400 gal. daily, [illegible] 1700 [illegible] [illegible]

at Naples, left Glasgow. I left his son with me.

April 10th. Examined the works at Port Dundas. It is 200 feet higher, in level, than the Clyde.

April 16th. Returned the following works to the University Library:-

Asiatic Transactions, 12 vols.
Manchester Memoirs. 4 vols.
Murphy on Weaving
Duncan on Weaving
Callico printer's assistant
Buller's Attack.
Walker's Philosophy
Edystone Lighthouse.
History of the Northern Lighthouses.
Walter Scott's History of Scotland. 2 vol.
Dr Ure's Chemical Dictionary.
Guest's " " " "

Second visit to Glasgow. 1830.

Tuesday 2nd of March. Visited Mr Thompson's spinning Mill. He said "Come as often as you please, but do not remain long any one time, because your presence will divert the attention of my people, particularly of the females from their works. and

These pursuits were not fruitless; and I followed them up with great ardour, deeming them highly necessary in a country like Egypt, where the many commerce and general agriculture [illegible] [illegible] for the establishment of great [illegible] spread through the medium of the Nile and the different branches of that river. [illegible] on [illegible] to embark on the [illegible] [illegible] of my adventures commanded by the [illegible] - [illegible], to my great astonishment I was ordered to enter an entirely new field of science and knowledge, in which I found myself [illegible] to call on and the result of my studies in London.

See page 90

What were my Occupations in London.

* * * *

I set about earnestly to perfect myself in the theory of Hydraulics, or Hydrostatics, and having plenty of time [illegible] to [illegible] me up [illegible] Foreign literature and the German language. In the evenings I opened my Military Books – and it was this that were naturally [illegible] the science of fortification, field works and other branches of the military art afforded subjects analogous in [illegible] to my previous studies; the remainder [illegible] to the books to [illegible] the progress of the works – chiefly the erection of the dock gates, sluices, bridges, and piers. After [illegible] got tired of attending [illegible] thought at once [illegible] [illegible] [illegible] one or two [illegible] finished and [illegible] [illegible] [illegible] of others of which the same [illegible]. Consequently after they had been [illegible] to the Docks [illegible] and employed the greater part of my time in studying the theory of Hydraulics, Hydraulic architecture, and in [illegible] works on general manufactures

[illegible]

Arrival in London from Glasgow.
March 28th 1828.

[illegible]

What I learnt in Glasgow:—

My stay in Glasgow was not so long as I could have wished: I had no difficulty of seeing the looms, which being in the workmen's own houses were not under the eye of the masters. The silver key soon opened the cottage doors. During the latter period of my sojourn in Glasgow I visited the looms more frequently; their variety was at first puzzling to me, and it was not until I had procured books on the subject that I could understand them. I was never allowed to make sketches, and for fear of the weavers' having suspicion of me I durst not take notes — but relied entirely on my memory to write down my observations after I left them. In the mean-time I did not neglect the opportunities of seeing the process of spinning — every [illegible] and making the subject more familiar to me. The conversation of my [illegible] and [illegible] friends added me an [illegible] information of a practical nature [illegible] in fine — I [illegible]

[illegible]

fully gratified my curiosity. I took and
visited from Bangor to London where I
arrived on Friday 20th of March 1828.
During the three or four days I staid in
Birmingham my kind host showed me his
Foundries & Works for making Steam Engines
He had several coal mines belonging to him
which he allowed me to descend & examine
One day we made an excursion to Chester
where we visited a Shot tower on the
same principle of construction as the one
situated near Vauxhall or Waterloo Bridge
in London. The day I left him we left
the house early in the morning and proceeded
to Holywell and on the road, stopped at a new
place worth seeing. I had the pleasure of
visiting Mr [illegible]'s Paper Mills
Mr Wilson's Copper Mills, and another
establishment similar. In him a large
scale, being both lead and brass works.
In these two works Mr Rigby had some
difficulties to get me in on account of the
jealousies of their proprietors - but upon
being informed that I was merely an
Egyptian cotton grower they consented at
[illegible].

fully gratified my curiosity. I visit and
visited him Bangor & London where I
arrived in Wales 26th of March 1828.
During the three or four days I stayed in
Manchester, my kind host showed me his
Foundries & Works for making Steam Engines
He had several coal mines belonging to him,
which he allowed me to descend & examine.
One day we made an excursion to Chester
where we visited a Shot tower on the
same principle of construction as the one
situated near Vauxhall or Waterloo Bridge
in London. The day I left him, we left
the house early in the morning and travelled
to Holywell - and on the road, stopped at every
place worth seeing. I had the pleasure of
"visiting Mr Greenwood's Paper Mills -"
viz: "Wilson's Copper Mills, and another
establishment similar, but on a large
scale, being both lead and brass works.
In these two works the party had some
difficulties to get me in on account of the
jealousies of their proprietors - but upon
being informed that I was merely an
Egyptian Cotton grower, they removed all
obstacles.

I staid in the Manchester few days, to prepare
for my final departure and to take leave of
my friends. I was very anxious to see the
great suspension bridge over the Menai Straits
before I left England; and the present oppor-
tunity being the last which will offer
I procured permission from London to be
absent the remainder of the season - and
having received a letter of introduction to
Sir [illegible] the Governor of [illegible]
[illegible]. I sent all my baggage to London
excepting a few books and some Military
Books which I took with me.
On Thursday 18th of March 1818. I left Man-
chester and travelled to Chester - and took a
conveyance from that place to the village
of [illegible] twelve miles distant and situated
on the left bank of the Dee. Here I enjoyed
the hospitality of Mr. [illegible] and remained
with him till the 23rd when I left him
at Holywell in a coach going to Conway.
I remained in Conway twenty-four hours to
see in full view the great Railway &
suspension Bridge leading to the town. On
the 25th I arrived in Bangor and examined
the Bridge which I had so long desired to see
[illegible]

February 20th 1828. Visited Paisley
—— 28th do.

March 1st Went to Paisley and remained there till Sunday.

March 3rd Returned from Paisley in the afternoon – saw an Engine for [illegible] Wood close to Mr. [illegible]'s Mills – and visited again [illegible] [illegible]'s Establishment.

March 5th 1828 Repaired to Paisley –
6th do. –
7th Still and returned to Glasgow very soon. Took leave of my friends [illegible] to my departure.
March 9th Took leave of my friends and prepared to leave Glasgow.
Monday the 10th of March 1828. Left Glasgow in the Steam Boat at 12 o'clock in the day – and arrived in Liverpool at 4 o'clock in the morning of the 10th.
I remained in Liverpool two days – to [illegible] the [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] and [illegible] the [illegible] time as I [illegible]. On the 13th at noon – took coach and [illegible] [illegible] [illegible] that same evening.

y 13th 1828. Attended the Lancaster to the [illegible]
mination of some Charity School boys [illegible]
[illegible].

y 14th Received my letter of introduction
Mr Houldsworth — and saw his spinning
mills.

17th Wrote to [illegible] — Mr Keates,
[illegible] to [illegible] Houldsworth & [illegible].

Wrote to Mr Nicholson — and went to
[illegible] to view [illegible] Mills.
Went to Paisley to see [illegible] Mills

Accompanied Dr Wilson to the Hospital,
[illegible] and Museum. Went to Paisley —
Wrote to Mr Henderson. Visited some
[illegible] Mills in a village near [illegible]
in company with Mr [illegible].
Left Glasgow for Edinburgh —
Returned to Glasgow early in the morning
[illegible] Mr [illegible] Workshops — afterwards
[illegible] him to the country to view
Mills for Spinning Cotton.
Went to Mr Dunn's Mills again
Visited Mr Buchanan's Bleaching
[illegible] Works and also Mr Black's
[illegible] Bleaching Works.

Mr. J. Boggs' letter of introduction - and that excellent man showed me his Mills for Cotton Spinning.

February 2nd Went to Paisley, seven miles from Glasgow to see some Weavers Mills. Was accompanied by Mr Laurie, [illegible] - Returned to Glasgow in the evening.

Sunday 3rd Wrote to Mr Nicholson

February 4th Wrote to Dr Burns. Saw Mr Thomson's Mills again. Went to Paisley.

Feb. 5th Wrote to Mr [illegible].

Feb. 7th Accompanied Mr Laurie to a Glass House & Potteries near Glasgow

Feb. 8th Wrote to Mr William Garnett. Mr Laurie showed me the Furnaces for making common black bottles belonging to Mr Dixon and situated near the Broomielaw Brig.

Feb. 9th Went to Mr Dixon's again to see the crucibles drawn out

Feb. 12th Called upon Mr Thomson, he took me over his Mills again and introduced me to [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] Manufactory [illegible].

...ise a good foundry for iron, and ... the furnaces being heated by ... ...ical Hydrostatic machine moved by ... Engine. They plane the ... ...d by machinery, and ... apparatus ... heads is the ... of mechanism, ... power-loom and some machinery ... the Cotton Manufacture.

...ards' Factory situated near Mr Roberts' ... extensive establishment for making ... Boilers, water pipes, large Toothed wheels ... He ... in his Pattern-shop no ... 12.000 different wooden patterns ... Wheels. The Foundry was very airy ... light ... with a well built roof ... ...erful cranes in every direction ... ... which gave ... ... coal and iron ... ...d ... ...

... Fairbairn ... Tool Shops were on ... ...

The Portable Gas Works, situated near Manchester
were large buildings where gas from coal and
oil was generated, purified and instead of being
sent over the town in pipes, as usual, were
compressed into iron vessels of various sizes.
The smallest vessels would contain gas sufficient
for two days consumption. The engines for pumping
and compressing the gas was a masterpiece
of Newton's genius and a work which reflected
great honour on Mr. Bramah's establishment.
The light afforded from this contrivance was
intense, equable and cheap. I found it my
advantage to use it instead of candles, which
without considering their expense, are dirty
and injurious to the sight, besides the vapours
which are evolved during the decomposition
are injurious to the health, whereas in case of
gas the only produce is a little hydrogen
which does no body injury. This gas although it has
a smell — as is the smell of a candle — both of
which, if we were taken not to allow them
to escape and reach the nose, would be
insignificant.
Messrs. Roberts's Sharp's Factory is situated
in [illegible] Street, and is of its kind the
nicest establishment in Manchester.
Their machines are excellent and they can
afford to [illegible] cheap work.

The [illegible] I [illegible] and was [illegible] friends
[illegible] [illegible] was very delightful but not
[illegible]; [illegible] [illegible] Mr. Dallas,
[illegible] William [illegible], [illegible] and [illegible]
[illegible] [illegible] to whom I [illegible] with great
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible]. I had the pleasure
of [illegible] going to see the [illegible]
[illegible] in the [illegible] Philosophical
Society where [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] — President. [illegible] I spent my
time in passing information with me
[illegible] again, and [illegible] to be able to
[illegible] the attention of my illustrious
friend [illegible] I could have wished to have
received [illegible] attention at the hands
of the [illegible] who were all extremely
[illegible] of strangers, especially of [illegible]-
[illegible] then soon came to know that
my object in coming to Manchester was
solely and mainly to gain as much
information as possible on the Cotton
Manufacture with the very view of
its introduction into Egypt, therefore, individually
[illegible] individuals amongst them were
kind enough to satisfy my curiosity —
[illegible] [illegible] I imagine, not to present
me with the slightest opportunity of
[illegible] [illegible] important & valuable hints.

During the twelve months I lived with Mr N
I did every thing in my power to learn and
to obtain that I was never satisfied with
myself. I found my reason for employment
in events – that has stimulated my attention
in one object I should have found much
time left void and idle in my hands. Therefore
for my own satisfaction and to great my
own convenience, determined to employ the
... time in the study of the French and Italian
languages for which I procured masters to
attend me and to assist me in. I attended to
the great Mr Dalton's Lectures on Chemistry
& my master's lectures on Mechanics &
Natural Philosophy delivered in the Mechanics
Institution, to Mr Hall's instructions in
Geology and to Dr Holland's lectures on
Chemistry. I also attended to various
experiments made in the Hospitals
and Infirmaries.

Mr Nicholson had a select library of various
books on the Arts & Sciences, which he kindly
permitted me to take to my house for my
use; and my friend Mr William Garnett
lent me some volumes of Rees' Encyclopedia.
Thus, by visiting all I could in the cotton
manufactories and seeing as much as the
Spinners' generosity & liberality would allow me
I spent my time in Manchester in agreeable
study.

and moving a step higher in their native class [illegible]
began to read and translate [illegible] commenced the
[illegible] Greek Grammar

In the fourth class [illegible] made considerable
progress in Latin prose - the study of that language
was attempted translation from the Greek were
commenced and Plane Geometry taken in hand.
French, Geography [illegible] [illegible] being combined

in the fifth class - the course of study was the
same as the former only entering into the higher
branches. Algebra was begun as also [illegible]

In the sixth & seventh class the most
difficult of the Greek & Latin authors were put
into the hands of the students. The study on
the mathematics being continued.

After going through these seven classes which
took up eleven long years - the student had
the satisfaction of having acquired a little
Latin & Greek. And nothing else [illegible]
[illegible] to be added to this

The rudiments of Natural Philosophy, Chemistry
and Geology were taught as a [illegible] separate
from the rest and [illegible] connected with
them [illegible] were taught
in one year and the pupil was [illegible] to
[illegible] another [illegible] a recollection of the
[illegible] [illegible] any thing [illegible]
in these branches [illegible] having been
[illegible].

The system of their education was, perhaps,
more adapted to prepare young men to enter
the church than the busy world. The [illegible]
eminent in their body and erudition are ignor-
ant of the world. They teach their pupils
[illegible] this may learn [illegible] knowledge and
[illegible] look upon as a [illegible] English [illegible]
youths who are already furnished with
[illegible], but very unfavourable to such as
are to make their way through the world.
The study of the dead languages, having
the duties of religion, was the immediate
object of their system of education. The
[illegible] in view being to prepare the
[illegible] mind to deep study and to
accustom it to deep reflection; so that
a person having [illegible] was
not fit for any useful and active [illegible]
[illegible], prepared to enter into
the particular studies necessary for them.
The pupils were divided into seven classes.
In the first [illegible]
entered, they learnt their alphabet,
learned their letters, were taught [illegible],
and commenced the Latin Grammar.
In the second [illegible] continued the Latin
[illegible] began to translate them into
English & commenced the French Grammar.
In the third [illegible] entered a course of geography
under the [illegible] [illegible] [illegible]

We staid a day in Preston and then took a Post chaise to carry us to Stonyhurst where we arrived a day before the Coronation of His Majesty George IV. On such an occasion the Society treated the neighbouring country people with beef and plumb pudding. Plenty of beer was given them to drink H. Majesty's health and after recommending me to the care of the Jesuits Mr Briggs took leave of me. It was very kind in him to take me up to this college the whole way from London.

I must not forget to mention that, whilst at Preston, we visited a Mr Stoughton who had travelled in Egypt during Mr Briggs consulship in that country and had received many attentions from him. In return he begged he would show me the same attention during our holydays.

Stonyhurst College is a large building with extensive lands attached to it. It belongs to the Jesuits who employ themselves in the care of the moral and human education of the Catholic youth of Great Britain. It is so respectable that the sons of the greatest families of Spanish Amer[illegible] are sent to it to receive their education. The Catholic nobility of England also send their sons there. In my time there were the Howards, Stanleys, Townleys, Cliffords, Jerninghams and others

Mr Samuel Briggs takes me to
Stonyhurst College

In Midsummer   Mr Briggs took me away from Clapham, where I had been for nearly three years, to remove me to a higher school and one professing the Catholic Religion, the religion of my family. He fixed upon Stonyhurst, an establishment of the highest standing and one well calculated to justify the wisdom of my guardian's taking me away from Clapham.

On our journey to it, we stopped a few days at Birmingham a large town celebrated for its extensive iron manufactures and cutlery. I was here introduced to Thomason the jeweller and silversmith, and to Messrs. Walker and Yates of the Gospel Oak Works, parties who have since been extensively employed in furnishing guns and iron works to His Highness the Pasha of Egypt. Mr Briggs also took me down a coal mine of great depth. From this town we proceeded to Manchester where Mr Briggs introduced me to Mr William Garnett and to several other gentlemen. He showed me the interior of a cotton mill, dyeing and calico printing establishment

[illegible] [illegible] [illegible] our [illegible]... free from all
[illegible] "plague" [illegible] . and [illegible] of the
[illegible] with Francis and sailed in a fast sailing
[illegible] to Dover. It was night when we landed
[illegible] there was new to me: The houses, streets
[illegible] [illegible]. and the costume of the inhabitants
[illegible] astonished me. When we walked [illegible]
[illegible] there were conflagrations in the town. The
[illegible] and waggons rattling through the streets
I took to be military carriages — in vain I looked
round for the Tarbushes.. but hats - hats - nothing
but black hats appeared. I was puzzled at every
thing I saw. It was a long time before I could
understand the bells in the rooms - and when
dinner was laid out I little expected there were
things to eat under glittering silver covers,
when the waiter smartly uncovered the dishes
[illegible], vegetables and fish appeared to come as
if by magick. At such an early age, I could
make no reflections on what I saw — but
I thought there was no water in England -
for I saw nothing but tea, coffee, beer,
ale porter, cyder, wines, brandy, gin, rum,
whiskey and every sort of made liquors — but
water these "sheitans" did not seem to relish.
We did not stay long at Dover - : one night I was
put into a coach drawn by four horses, which
I at first sight took for a "toolumba", it never
[illegible] but travelled with great rapidity (very
unlike our "arabas") till we arrived in London.

Smyrna, [illegible] was a gas [illegible]. I lived
in a place close to the sea side where I
had in view all the shipping in the harbor
At night there took place exhibition of
fire works from boats and at sea; this was
amazing to me never having seen any
before.

Return to England in 1818

After a stay of six weeks or two months
in [illegible] Smyrna engaged my passage
to England in a small English Brig, com-
manded by Captain [illegible] and laden with
cotton, [illegible] and large raisins. We were
frequently becalmed in the Mediterranean.
We stopped at Malta to get in water
and fresh [illegible] also at Gibraltar.
In the Bay of Biscay, experienced very
rough weather. I do not recollect where
we anchored and performed quarantine.
this lasted about three weeks or a
month; and my confinement greatly
dissatisfied me, particularly as I saw
land so close and distinguished
the inhabitants walking about the
field, and the cattle grazing. About
this time I was [illegible] with a painful
inflammation in the muscles of my right leg.
which confined me to my [illegible], a [illegible]
[illegible] prescription [illegible]

Ships, trees and minarets appeared to pass
away. Galata looked small and I stood on
the steps of the cabin looking along the deck
and shedding tears, which when Franco
perceived it, said I had no courage which
wetted me and made me insist it was
the dust on the deck was blown into my
eyes and made them water
I do not distinctly remember what I saw
during the voyage. We stopped at Cape Baba
where I went on shore with some women
and my servant to buy fresh fruit, here I
observed tall columns the remains of magnificent
temples of antiquity. The water of the sea here
was so clear that we could clearly distinguish
the rocks and shells laying on the bottom.
We never lost sight of land the whole way
from Constantinople to Smyrna
Arrived in Smyrna Franco got engaged
in the Frank quarters close to the sea side
This man was a sort of linguist and had
acquired the confidence of my father who [illegible]
him to take care of me till our safe arrival
in London But he turned out to be an
impudent vagabond - a thief and a drunkard
In London he got into debt and Mr Buggs
had great difficulty with him to get him
off and give an account of himself but
[illegible]

I had, as usual on such occasions, much good
advice given me. I was young and thoughtless.
I knew not the value of parents, and my head
being full of amusement at sea and of going
to a country where all the inhabitants were
great men and Englishmen — I left them
happily... highly impatient to mount a horse
for the last time in my life, which was
standing at the door for me. Before I left
the house, an old Armenian lady, who a
little time ago had foretold a certain house
in the neighbourhood would be on fire
and was in consequence looked upon as a
prophetess, put her hands upon my head and
said I should be "most fortunate." Such [illegible]
gave me her best benediction. My second [illegible]
[illegible] and younger brother wept much
because I was going away, but my affectionate
mother, with [illegible] grief, beckoned me
to her and kissed me on the forehead.
She pressed my head to her bare bosom
and [illegible] cherished me long
but the time came when I was to
part — and since that day I have
never seen her and it is now nearly [illegible]
years. I have had no news from her.
Being lifted on horseback, I was led to
the port where I embarked in the [illegible]
I looked at my father as long as I could
distinguish him in the crowd.

who durst not dislodge me from a heap of
oyster shells in a corner. A [illegible] of
[illegible] [illegible] gave me a [illegible] drubbing
with the two little sticks he picked up
the Bosphorus [illegible] — and thus humbled me so
that I never put my foot into the [illegible]
again for fear of the "bodgee". Thus a
vagabond dyer effected an object in my behalf
what could be done neither by paternal admo-
nition nor severe and [illegible] chastisement

Go to Smyrna (Greene Times)

[illegible] [illegible] [illegible] about 1817 or the
beginning of 18[illegible] [illegible] his mind
to send me to England. The first indi-
cation of his resolution was to buy me
a complete suit of Frank clothes. A small
box of linen with my Turkish costume
and three [illegible] [illegible] books — was
packed and sent off to an "Ionian Caique"
which was just leaving Constantinople.
[illegible] and I strutted about
the [illegible] in a pair
of new shoes looking fierce and turning
round sharply on my heels to show how
I could act the Frank. But when, in the
presence of the whole family [illegible] I
[illegible] thrust my hand into my tight
breeches to adjust my shirt, the joke
was carried too far — and my mother [illegible]
[illegible] skipper and [illegible]
[illegible] the [illegible]
[illegible] laughed heartily at my European grimaces.

moments, constraining me to sit in one position
before him and to listen to his reading, although
I declare I did not understand one syllable of
what I heard – nor what is more remarkable
my father himself did not know a word of the
English language – and seemed to derive pleasure
from hearing his own voice in that peculiar tongue.
He always shut up the book by observing
the English were shaitans very ak[illegible]
and would send me amongst them to be a
ben-adam. Then ordering me to light
his pipe he used to sit gazing at me whilst
I drummed a little wooden stool with
feet, and nine fingers in the Arab fashion.
I had become a very good boy, often wished
to go to England and went morning and night
to Sede for his blessing. I used to watch for
hours a picture of the Virgin Mary to see
whether it would move – and always took
a little Italian pocket dictionary to bed with
me. Notwithstanding my zeal and piety
I was as pugnacious as ever – and took every
opportunity to fight with the little boys of our
neighbourhood – and extraordinary enough – in
such rencontres I proclaimed aloud that I
was an Englishman – was going to Frangistan."
I had great strength and toughness for a little
boy and generally obtained the mastery in fighting.
I was partially cured of my conceit one day
when quarrelling on the verandah with many [illegible]

[illegible] [illegible] "Kalem" and a [illegible] "[illegible]" on my head. My hair which was yellow and long was combed behind flat to my back and [illegible] before and turned over my turban. I was allowed to wear this [illegible] on Sundays and whenever my father took me out a walking with him. On these occasions I always walked in his shade and sometimes [illegible] some of the [illegible] of his "caftan" or "benish".

I was now no longer known by the name of "[illegible]" as [illegible] in the family; but was always called "Koutchouk Ingeliz" or Little Englishman. [illegible] [illegible] night to a large [illegible] palace with many lights and [illegible] halls. I do not remember who the inmates were — but after we had drank tea (the preparations for the [illegible] of which was a magnificence new to me) Mydeid Aga with great ceremony took me by the hand through a [illegible] gallery to a room where there were [illegible] [illegible] in great [illegible]. [illegible] he said "[illegible] [illegible] [illegible] English French and Italian books open and read them and you shall be a great man" — [illegible] then he shut the door upon me and left me by myself with books I was puzzled to open much [illegible] to understand. [illegible] [illegible] gave him two [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] in English — the latter was the one he was afterwards fond of [illegible] [illegible] [illegible] to me in his [illegible]

The solemn air of the masters induced
respect, and the number of scholars in
discipline who attended to their
studies, meals and recreations in regular
hours caused me to be more docile
and attentive. I had books given me
and [illegible] paper to write on. These things
induced me to become studious. In fact
my superiors were pleased with my progress,
particularly in drawing ships. But
when I drew a picture representing
souls broiling in purgatory - with angels
pulling up some and letting down others, my
character as a clever and pious boy was
soon established. [illegible] my mother thought
that after such a specimen of genius my
education was compleat or that the time
I was to be with these priests had closed.
I left that place and returned to my
mother who received me very affectionately.
My conduct was now greatly altered;
I helped to clean the hearth and to
draw water. I no longer ran about - but
sat with Dédé, an aged Indian man
who lived with the family, the greater
part of the day - brought him coffee and
held the basin and poured out the water
for him to wash his hands and beard with.
[illegible] reading out aloud although
I understood not it. I prayed. Said over my
beads every night and prayed with my mother
to our patron saints. I was thus a favourite
of my family.

My Father returns from [illegible] (Egypt).

It was on the evening of a rainy day that my [illegible] mother had just [illegible] an account of the [illegible] relatives who had [illegible] [illegible] the plague [illegible] [illegible] flowers from our window [illegible] [illegible] our [illegible] my beloved father had returned from that far country [illegible] [illegible] [illegible] there was a sound at our street-door and running to open it, [illegible] to my astonishment he had come. He [illegible] into my mother's room, got on the sofa and told me to undo the strings which confined his large Tartar trousers to his ankles when to my terror out rushed handkerchiefs, papers, letters, [illegible], books, money and other [illegible]. He then changed his blue turban for the Armenian calpac and whilst my mother hastened to prepare him coffee, sat on the divan and began to play on the tambour. He commanded me to [illegible] and buy him tobacco and to fetch fresh water for him to drink. I hastened [illegible] errand with delight and took the precaution of carrying a [illegible] stick horizontally and across me under my [illegible] and to touch the clothes of any person in the street. My parents bought me a new suit of clothes in accordance for my [illegible] [illegible] in my studies [illegible] was very proud of myself this [illegible].

we came to some plane-trees - our Driver broke off some branches with the sweet-smelling blossom to adorn the cart with. Before we arrived at the "[illegible]" we crossed a great heath - whence we had a view of the minarets of Stambul. We lived in the house of a Greek who showed us his knives and pistols, to show he was well armed against robbers and Bostanjis.

Few days elapsed before I found out where the vineyards were, where the goats were milked and where the Bakals kept their shops. My father to keep me out of mischief, having been already some months in Tarapia quite idle, engaged a Frenchman to give me lessons in French. His tight pantaloons and creaking boots caused me to dislike him. I learnt as much French from him as Fluxions or Spherical Trigonometry - and when my father was about to set off for Masr (Egypt) and the family had to remove to Beylerbey again - I left him with great joy.

Previous to leaving Constantinople, I was placed in a superior sort of Academy conducted I think by some Armenian priests. This establishment situated near the Ships in the harbour seemed a palace to me. Painted walls, picture fountains, ornamented & lofty ceilings, long galleries and large windows with magnificent panes of glass to them were new to me

that I was consigned to the care of a Papas
who had great many scholars from whom
I learned much mischief; notwithstanding
in the course of nine or ten months
this man taught me how to repeat the
Lord's prayer in Romaic by art and to pronounce
the Greek alphabet. Such proficiency in
the Greek language was deemed highly
creditable to my natural talents and I was
forthwith dispatched to an Italian priest's.
This Abbé was an old man who had lost
the use of his legs and always lay in bed;
he had the rosary and breviary continually
in his hands. I soon found his decrepitude
and piety unfavourable for my spirit of
idleness and seldom attended to his
instructions. The distance of his school
from my house offered too many objects
in the way to attract my curiosity and
to detain me; besides, as I now carried
out my dinner every day in a basket
I was always tempted to open it soon
after I turned a corner out of view of my
house, devouring the most delicate
morsels and throwing away the rest to
beggars and dogs – the former blessed me
and the ~~latter~~ wagged their tails: I came
thus to distinguish many of these beggars
some of whom I favoured more than others,
and these men, taking advantage of my
simplicity, always lay in wait for me.

In Constantinople.

I was an ungovernable little boy, seldom attended the Papaz who kept a little school in the neighbourhood of my father's house instead of studying I was fond of fighting and cutting figures out of bits of paper. I seldom stayed in the house — but was continually in a "carsana" close by drowning kittens setting fire to heaps of straw and pelting at dogs. The limit of my peregrinations was an Okkal's about fifty yards from my door, where I used to admire the pickle, soujouk and sundry groceries; opposite this shop was a tavern frequented by Janissaries and Kallioungees whom I used to admire on account of their glittering costume and bright arms.

My father who did all in his power to give me a good education, put me to no less than five different schools. My first master was an Armenian of irritable temper who flogged his pupils regularly once a week, by dint of frequent lashing and imprisoning the good man succeeded in teaching me how to read and write the Armenian language.

الملاحق (*)

BRITISH MUSEUM

DEPARTMENT MANUSCRIPT

CATALOGUE 37448 ORDER PS5/403

AUTHOR ———

TITLE HÉKÉKYAN PAPERS (SELECTED PARTS)

PLACE & DATE OF ORIGIN 1807 - 1841

INCHES 1 2 — 1 2 3 4 5 CENTIMETRES

BRITISH MUSEUM PHOTOGRAPHIC SERVICE, LONDON

(*) من أوراق حككيان بالمتحف البريطانى

فهـــرس

الصفحة

صـــــدر فى هذه السلسلة

٨ ـ التطورات الاجتماعية فى الريف المصرى قبل ثورة ١٩١٩
د . فاطمة علم الدين عبد الواحد .

٩ ـ المرأة المصرية والتغيرات الاجتماعية ١٩١٩ ـ ١٩٤٥
د . لطيفة محمد سالم .

١٠ ـ الأسس التاريخية للتكامل الاقتصادى بين مصر والسودان ـ « دراسة فى العلاقات الاقتصادية المصرية السودانية ١٨٢١ ـ ١٨٤٨ »
د . نسيم مقار

١١ ـ حول الفكرة العربية فى مصر ـ « دراسة فى تاريخ الفكر السياسى المصرى المعاصر .
د . فؤاد المرسى خاطر .

١٢ ـ صحافة الحزب الوطنى ١٩٠٧ ـ ١٩١٢ ـ « دراسة تاريخية » .
د . يواقيم رزق مرقص .

١٣ ـ الجامعة الأهلية بين النشأة والتطور .
د . سامية حسن ابراهيم .

١٤ ـ العلاقات المصرية السودانية ١٩١٩ ـ ١٩٢٤ .
د . أحمد دياب .

١٥ ـ حركة الترجمة فى مصر فى القرن العشرين
أحمد عصام الدين

١٦ ـ مصر وحركات التحرر الوطنى فى شمال افريقيا .
د . عبد الله عبد الرازق ابراهيم .

١٧ ـ رؤية فى تحديث الفكر المصرى ـ « دراسة فى فكر أحمد فتحى زغلول » ٠

د ٠ أحمد زكريا الشلق ٠

١٨ ـ صناعة تاريخ مصر الحديث ـ « دراسة فى فكر عبد الرحمن الرافعى » ٠

د ٠ حمادة محمود اسماعيل ٠

١٩ ـ الصحافة والحركة الوطنية المصرية ١٩٤٥ ـ ١٩٥٢ ـ من ملفات الخارجية البريطانية ٠

د ٠ لطيفة محمد سالم ٠

٢٠ ـ الدبلوماسية المصرية وقضية فلسطين ١٩٤٧ ، ١٩٤٨ ٠

د ٠ عادل حسين غنيم ٠

٢١ ـ الجمعية الوطنية المصرية سنة ١٨٨٣ ـ « جمعية الانتقام » ٠

د ٠ زين العابدين شمس الدين نجم ٠

٢٢ ـ قضية الفلاح فى البرلمان المصرى ١٩٢٤ ـ ١٩٣٦ ٠

د ٠ زكريا سليمان بيومى ٠

٢٣ ـ فصول فى تاريخ تحديث المدن فى مصر ١٨٢٠ ـ ١٩١٤ ٠

د ٠ حلمى أحمد شلبى ٠

٢٤ ـ الأزهر ودوره السياسى والحضارى فى أفريقيا ٠

د ٠ شوقى الجمل ٠

٢٥ ـ تطور النقل والمواصلات الداخلية فى مصر فى عهد الاحتلال البريطانى ١٨٨٢ ـ ١٩١٤ ٠

د ٠ فاطمة علم الدين ٠

٢٦ ـ جمعية مصر الفتاة ١٨٧٩ دراسة وثيقية

د · علي شلش ·

٢٧ ـ السودان فى البرلمان المصرى ـ ١٩٢٤ ـ ١٩٣٦

د · يواقيم رزق مرقص ·

وبين يديك :

عصر حككيان

أ · د / احمد عبد الرحيم مصطفى ·

والعـــدد القـــادم :

المجالس النيابية فى مصر فى عهد الاحتلال البريطانى

د · سعيده محمد حسنى ·

رقم الايداع ٢٢٩٩/١٩٩٠
الترقيم الدولى ٧ ـ ٢٣٩٢ ـ ٠١ ـ ٩٧٧

الهيئة المصرية العامة للكتاب

يستهدف هذا الكتاب القاء المزيد من الأضواء على تاريخ مصر الحديث فيما بين عامى ١٨٤١ و ١٨٦٣ ، وهى الفترة التى تشمل أواخر عصر محمد على وعهد كل من عباس الأول وسعيد .

وقد شهدت هذه الفترة التى لم تحظ بالدراسة الكافية انتقال مصر من حيز الفتوة والاستقلال الواقعى إلى التبعية لأوروبا وما استتبعته من تحولات وهزات عاصفة .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢١٠ قرشا